



رمضان قبل موتها



حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

ردمك: 978-977-6593-15-2

رقم الإيداع القانوني: 2017/23808



حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: شركة أرابيسك (الحلول المتكاملة للتقنية والتصميم) arabisq1@gmail.com

القاهرة / مصر

جوال: 00201278821670

00201003528058

daralmotaqa@gmail.com

لمظان قبل موتها

مريم محرز
صفاء عبد الصبور
محمد الأمين محمدي
شاربي سيف الدين محمد
أحمد أسامة
الباتول طلحة
أحمد بسيوني
فادية رمضان
عبير السيد
عائشة مرتومي
فاطمة أبو زيد

تأليف

لمحطات قبل موتها

ولكي نستنشق عطر القصة القصيرة ... بذلت دار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع الجهد الصادق لتجمع للقارئ من كل بستان زهرة ولتحملكم إلى عالم الإبداع والفكر والمتعة بين ماهو حقيقي وماهو من دروب الخيال ... كوكبة من أنحاء الوطن العربي والغرب شيدوا بأقلامهم هذا البناء الذي هو بين أيديكم "محطات قبل موتها" فها بنا نعيش هذه اللحظات بين سطورها وطيات صفحاتها وأنغام أقلامها.

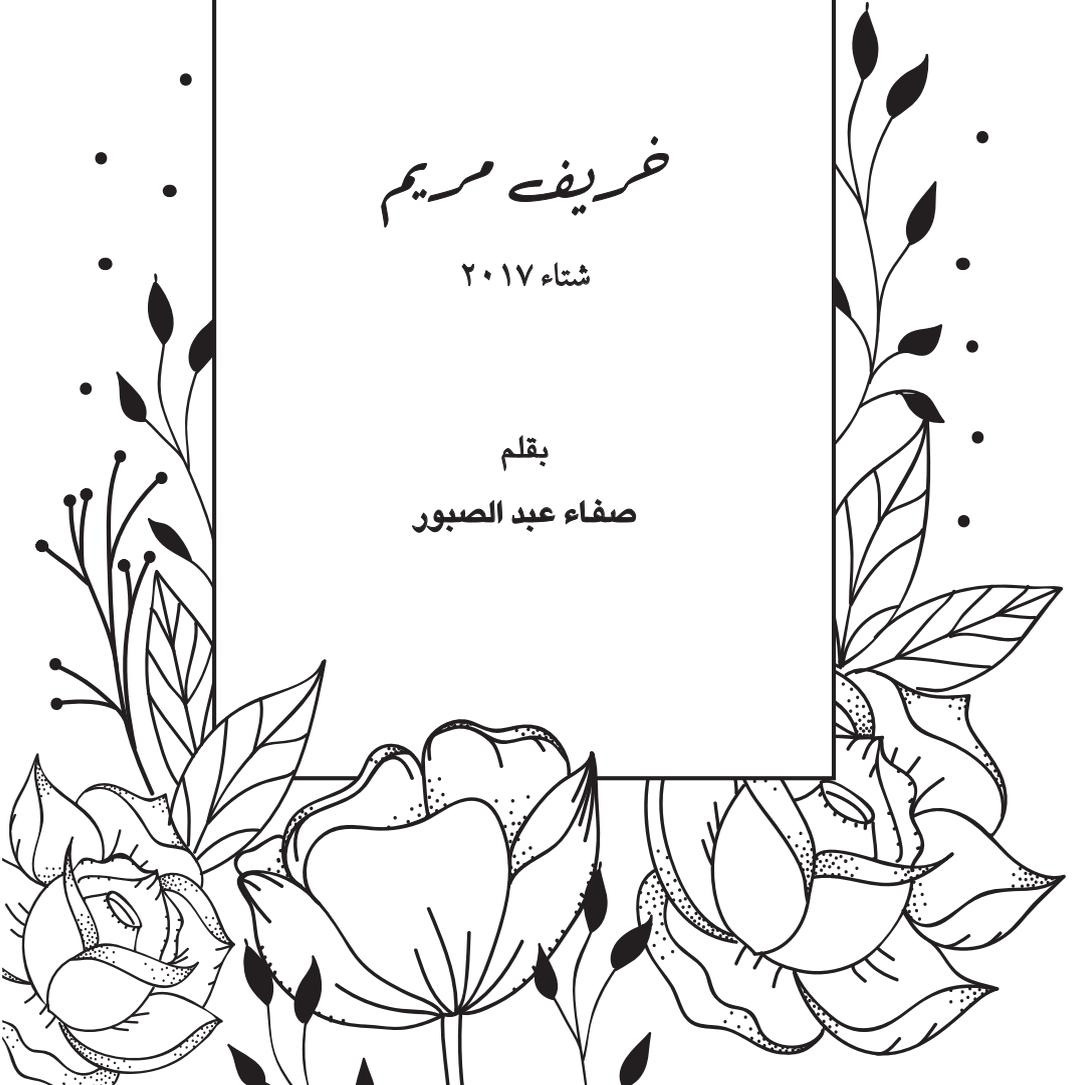
دار
الملتقى
للنشر والتوزيع

خريف مریم

شتاء ۲۰۱۷

بقلم

صفاء عبد الصبور





في ليلة من ليالي الشتاء وبعد انقضاء منتصف الليل ومضي ساعات من حوار قد دار بين مريم وصديقتها نوال، مكثت مريم وهي امرأة في أوائل الخمسينات؛ ذات وجه شاحب يخيم عليه ظلال الحزن والأسى، وروح زاهدة في الحياة، وقلب بلا أمل، وعقل منهك من التفكير والتخبط. مكثت مترقبة انقضاء ليلتها التي طالت كثيرًا فقد أنهكها التفكير الطويل فيما حدث، والسر الذي تم نبشه من بين القبور والبوح به بعد مضي أعوام طالت قبل الليلة، وكم كانت موحشة وكثيية وتبعث على التفكير في الموت والراحة للأبد. وكم من الأسرار الأفضل أن لا تكتشف، وأن تظل مخبأة كانت ليلتها تعج بالمعاناة والألم أشبه بحياتها على العموم.

وكانت مريم تردد بداخلها: أنا أعلم أن يدي اقترفت ذنبًا كبيرًا، وأعي تمامًا وتستقر بداخلي القناعة الكاملة بأنني أستحق العقاب، ولكنني لم يخطر لي ببال أن عقابي سيكون قاسيًا إلى هذا الحد. ولم أتخيل أن أتلقى صفة ترديني أرضًا، وتهوي بي إلى بؤرة المعاناة والعذاب، ولم أتصور أن القدر سيبيكيني ويريني بشاعة ما بداخلي! إن عقلي الآن يعاقبني بقسوة فهو لا يريد لي رحمة ولا غفرانًا، بل إنه يواصل تعذيبي بعدم التوقف عن التفكير والندم؛ إنه يقودني للجنون

والانتحار حتى يكف عن معاقبتي بهذا الشكل، وأنا أستحق مزيداً من الألم والحسرة.

ظلت تجلس في شرفة منزلها على الرغم من شدة البرودة وهطول الأمطار كأنما أرادت عذاباً أكثر لها فهي لم تكتف بالشعور القاسي بالندم والألم النفسي فجعلت ألماً جسدياً مصاحباً، لأن هذا الجو يذكرها بالليلة المشئومة واصلت حديثها مع النفس.

لقد كنت تائهة في الكراهية والثأر، كنت يائسة ونسيت الحب مما جعل قلبي مشوشاً وفارغاً؛ فهو لم يتثن له قراءة عينيه وما كانت تحويه من حقيقة وحب حاول أن يتظاهر بعكسها.

كنت ضعيفة ومستسلمة وهوى بي شيطاني لجحيم الانتقام بعد أن تسلل إلى روعي الضعيفة، وبعد أن تمكن مني قضى على صوت الضمير الذي لطالما كان مدوياً بداخلي، ولا يسمح لي بالانحراف عن العدل والخير، ولا يتوقف عن النذير واللوم إذا ما وقعت في خطأ ما، إنه تم تعطيله والتشويش عليه أيضاً ليدع شيطاني يتتصر أخيراً.

ليست هذه شاكلتي، ولست أنا هكذا أذكر كيف كنت في الماضي؟ وكم كانت لي مشاعر رقيقة، وأحلام بحياة دافئة وأبناء يزينونها، وشريك للعمر ومزيد من الحب والسعادة؟

تهدت مريم وخرجت الآهات من الأعماق، والدموع ذرفت من عينها ذكرى ما فقدته تملأ أنفاسي بالحسرة، وتجعل قلبي موصداً بأغلال الخسارة، وأسوأ ما في الحياة أن الماضي لن يعود لتغير أحداثه ونمحو خطاياها فيه!

نهضت مريم وزلفت إلى الداخل، وأخذت تنظر إلى الحائط المعلق به الكثير من الصور لشخص واحد فقط هو عمر الابن الروحي

لها، وتقول: كنت بالنسبة لي طاقة نور وسط الظلام، ووجودك كان يدعوني للأمل والحياة وخسارتك تعني انقطاع الأمل. لقد خيل لي أنني أخذت نصيبي من الآلام والشقاء بخسارتي ليحيى، وما كنت أدري أن يحدث ذلك وأخسر عمر أيضًا.

وبعد ذلك توجهت نحو منضدة عليها مذكرات أمسكت بها وهي تقول: كان الواجب أن أكون أكثر حرصًا على إخفاءك من ذلك. منذ ثلاثة أيام مضت كانت مريم جالسة تشاهد التلفاز مساءً وسمعت جرس الباب ونهضت كي تفتحه.

مريم: «عمر، تعال، تفضل يا قلبي والله كنت أفكر فيك».

عمر: «حقيقة كنت تفكرين فيّ!».

مريم: «طبعًا، ليس في قلبي غيرك أنت».

عمر: «لكم أوحشتني حقيقة، كيف حالك؟».

مريم: «الحمد لله بخير، اقعد يا حبيبي استرح من السلم وأنا سأدخل أعمل نسكافيه أم تريد شرب عصير طبيعي أحسن».

عمر: «ليس الآن، أنا أريد أن أتكلم معك قليلًا».

مريم: «خيرًا إن شاء الله، أنا أيضًا توقعت ذلك، مجيئك هنا الساعة عشرة ونصف ليلاً وراءه موضوع مهم، ما هذا الموضوع؟».

عمر: «أسف جدًا، أعرف أنك تنامين مبكرًا، لكنني لن أستطيع النوم الليلة بدون أن أتكلم معك». قالها وعينه قد بدا فيها الخجل قليلًا.

مريم بابتسامة وخفة: «نعم، فهمت، ما هو هذا الموضوع؟ هل

هو حب جديد؟».

نظر عمر لها بإماعة رأس.

مريم: «منذ متى هذا الموضوع؟».

عمر: «من أول السنة، بنت جميلة جداً ورقيقة ومؤدبة، لم أرها تكلم أحداً، أعجبت بها عندما رأيتها، والشعور بالإعجاب تطور معي وهي لم تعطني فرصة كي أكلمها، واليوم تأكدت من مشاعرها تجاهي». مريم: «حب مرة واحدة أليس مبكراً الكلام على هذا، أنا لا أريد أي شيء يشغلك عن دراستك».

عمر: «بالعكس هذا الموضوع سوف يشجعني جداً على المذاكرة ويجعلني كلي حماس كي أنجح بتفوق خصوصاً أننا اتفقنا على الخطوبة بعد الامتحانات مباشرة، ثم الزواج بعدما ننهي الدراسة». مريم: «أي بعد ثلاث سنين، وما الذي يجعلك تعدها بالزواج وأنت لست جاهزاً، بل أمامك ثلاث سنوات».

قالتها مريم وقد بدا على ملامحها التغيير.

عمر: «ماذا حدث يا أمي؟ هل ضايقتك؟ لماذا؟ كنت أظنك ستفرحين».

مريم: «عمر، لا أريدك أن تخطئ الخطأ الذي أخطأه غيرك زمان».

قالتها مريم وعيناها دمعت:

«ركز الآن في دراستك وأجل هذا الكلام حتى التخرج، لا تعد بشيء وأنت لا تضمن الوفاء بوعدك».

عمر: «ما الذي سيجعلني لا أفي بوعدي، أنا أحبها وهي كذلك تعجبي، وأنا واثق أن مشاعري لن تتغير طيلة عمري؟».

مريم بصوت مرتفع:

«كان غيرك يقول مثل هذا الكلام أيضًا».

عمر وهو ينظر في دهشة ويقول:

«من غيري؟ لماذا كلامك كله غريب هذا اليوم؟ يبدو أنني أخطأت عندما أتيت أنا ذاهب الآن بعد إذنك».

مريم: «لا تذهب، أنا آسفة، يبدو أن أعصابي مرهقة اليوم، أرجوك لا تغضب مني، سامحني ليس هذا قصدي».

عمر: «لا أفهم ما الذي أغضبك بهذا الشكل؟ وماذا تقصدين من كلامك هذا؟».

مريم: «لا شيء، صدقني، أنا من أول اليوم وأنا أشعر بتعب».

عمر: «إذن يجب أن أذهب بك لأقرب طبيب، هيا قومي بتغيير ملابسك».

مريم: «لا أريد طبيبًا أنا بخير، إنه تعب بسيط، لا يستحق ذلك».

عمر: «لا، شكلك يبدو عليه التعب، أرجوك هيا بنا نذهب للطبيب».

مريم: «هذا الألم يصيبيني في جنبي، الآن سأخذ مسكنًا وسأكون على ما يرام».

عمر: «إذن سأظل بجانبك لن أعود للبيت حتى أطمئن عليك».

مريم: «لا أريد أن أتعبك، كما أنك عندك مذاكرة، وامتحاناتك اقتربت، والله أنا سوف أكون بخير بعد أخذ الدواء، وسوف أنا مباشرة».

عمر: «قلت لن أترك وحدك، وسأكلم أُمي لأطمئنها حتى لا تقلق علي».

وتناولت مريم الدواء وخلدت إلى النوم وظل عمر بجوارها وتحدث مع حبيبته علي المحمول، وبعد أن انتهى من حديثه معها الذي دام لساعتين أراد الخلود للنوم، وكان يحتاج إلى غطاء فدخل غرفة النوم وفتح دولاب الملابس ليبحث عن غطاء، وهو يقوم بذلك وجد أجندة كبيرة مكتوب عليها مذكرات مريم، فدعاه الفضول لاستكشاف ما بها فأخذها، وخرج من الغرفة وهو في حيرة من أمره يود أن يقرأ ما بها، وفي نفس الوقت يحدث نفسه أن ذلك لا يصح، وربما بها أسرار خاصة، فلذلك مريم طوال عمرها لم تتحدث معه عن الماضي وعن ما يخصها، وظل في صراع مع نفسه ولكن في النهاية تغلب عليه الفضول وقام بفتحها وقرأتها.

تروي مريم:

«اليوم لأول مرة أبدأ في تدوين مذكرات لي، فأنا اليوم أشعر أنني بحاجة إلى قلمي وأوراقتي، ربما أن المرء منادئًا يحب أن يسجل الأوقات الجميلة في حياته، إما بكتابتها في مذكراته، أو بالتقاط صورة تذكارية، وأنا اليوم أريده أن لا ينسى؛ لذلك أمسكت بقلمي وأوراقتي لأكتب رغم أنني لم أفكر قط في تدوين مذكرات لي؛ ربما لأنني كنت دائمًا أتجاهل ما بحياتي من ألم، ولا أريد تذكره، فأنا بحاجة لمزيد من النسيان، ومزيد من التفاؤل، والتطلع إلى المستقبل، وعدم التفكير في الماضي، أريد فقط أن أخطو بقدمي نحو الحب والسعادة، فالיום يناديني الحب وأنا ألبى النداء، ويا لها من روعة إحساس! ويا لها من فرحة كانت مؤجلة في حياتي!».

«اليوم (١٠/٩/١٩٩٠) أقولها بقوة: نعم، أحببته ولأول مرة في عمري قلبي يخفق، وتتراقص مشاعري فرحًا على دقائق قلبي النابض بالحب منذ ما يقارب الشهر حين رأيته للمرة الأولى، حينما جاء ليسكن في العمارة التي أقطن بها، شعرت نحوه بالحب والراحة والأمان ولم أكتث بالفارق التعليمي بيني وبينه، فقد كان حاصلًا على معهد متوسط وأنا كنت حاصلة على بكالوريوس علوم وماجستير الكيمياء الحيوية، وقد تم تعييني في المركز القومي للبحوث، وكنت أحلم بافتتاح معمل تحاليل يحمل اسمي، ولذلك كنت أعمل بعد الظهر بجانب عملي في مركز البحوث لأدخر المال لتحقيق حلمي، وأشعر أنني الآن على مشارف تحقيق أحلامي وخاصة بعد ظهور يحيى في حياتي التي ملأها بهجة وحياء، فقد كنت قبله أتحرك ببطء نحو هدفي وشعوري بأني وحيدة وقلبي فارغ يجعلني مشتتة وغير قادرة على التركيز، ودائمًا أفكر في الماضي وأشعر بالشجن الشديد حين أتذكر أمني التي فقدتها وأنا صغيرة أذكر صوت ضحكاتي أنا ورفيقاتي في شارعنا ونحن نلهو ونفرح، وإذ بالصوت يتخافت، ويهيمن صوت الصراخ والنحيب لأعلم بأن أمني قد رحلت، ورحل معها الأمان والفرح، وأذكر والذي الذي تزوج بعد وفاتها بأقل من سنة مما جعلني أشعر باليتم مرتين، وأذكر تمامًا مشاعري بالغربة وأنا في منزل والدي، ومرارة الشعور بذل وقسوة زوجة الأب، وبالمقابل ضعف الأب تجاهها، ولم يكن لي سوى شقيقة واحدة من أمني هي آمال، والتي كانت أصغر مني وتذكرني بوالدتي، وكانت هي القلب الطيب والرفيق لي في أيام المعاناة في منزل أبي، وأذكر الفقر وضيق العيش بسبب دخل والدي المحدود، وكثرة عدد أسرته فقد أنجبت زوجته ثلاثة أبناء لنصبح سبعة أفراد».

«علمت جيدًا أن لا ملاذ لي إلا بالتعليم والوظيفة؛ لتحسين ظروف حياتي ولأعوض ذاتي عن كل حرمان، اجتهدت لأحقق ذلك، وكنت أستقوي بالأحلام لأنتصر على الإحباط وكنت أنتظر اليوم الذي أغادر فيه منزل والدي لمنزل زوجي لأبدأ الحياة المرجوة، وأعيش في استقلال وراحة، ولكن طال انتظاري بعد تخرجي من الجامعة، ولم أعد أقوى على تحمل ذل زوجة أبي وأوضاع المنزل، فحين ذاك قررت مغادرته والاستقلال، والغريب أن والدي لم يرفض أن أعيش وحدي أنا وشقيقتي آمال؛ يبدو أنه أراد تخفيف الحمل، وما أن حدث ذلك إلا وعلمنا أن للحياة طعمًا آخرًا؛ طعم مذاقه جميل، وأن العيش بعيدًا عن زوجة الأب هو قمة السعادة، وزادت سعادتني بزواج آمال، ولكن حزنت قليلًا لبعدها عني وإقامتها في مدينة الإسكندرية، فقد كانت ونسًا لي، وها أنا الآن وحدي، ولكن الحمد لله أن يحيى بجوارري وأتوسم خيرًا أن تكتمل فرحتي حينما نتزوج».

بدا على وجه عمر الحيرة والتساؤل بعدما ورد اسم يحيى في المذكرات، فهو اسم والده، فصار يسأل نفسه هل هذا مجرد تشابه أسماء أم هو بالفعل والده؟ وزاده الفضول والتشوق لمعرفة المزيد واستطرد القراءة.

«٢٤ / ١٠ / ١٩٩٠ م» اليوم كنت مع يحيى في كازينو على النيل ولكنني لست سعيدة اليوم، وفرحتي لم تكتمل؛ كنت أتمنى لو أنه اليوم الذي يطلب الزواج مني، ولكن للأسف ظروف يحيى غير جيدة للغاية، لن يستطيع الزواج في هذا الوقت لأنه مسئول عن أسرته وهو عائلها بعد وفاة والده، ولديه ثلاث أخوات بنات - لم يتزوجن بعد - وأمه،

فهو الذي ينفق عليهن ويرسل لهن نصف راتبه شهريًا وبالكد يكفي متطلباتهن، وكن يعيشن في المنصورة، وهو أتى إلى القاهرة للعمل، وأخبرني بأنه قد قطع على نفسه وعدًا أنه لن يتزوج إلا بعد أن يجهز أخواته ويزوجهن، وحاولت إقناعه بأن نتزوج ونعيش في أي مسكن بالإيجار وأساعده براتي ويرسل لأهله ويجهز أخواته رفض، وقال إنه لن يتزوجني إلا بعد أن يكون جديرًا بي، وقال لي بأنني جوهره ثمينة من يحظى بها عليه أن يضعها في مكان فاخر».

«في الحقيقة أنا زاد تمسكي بيحيى اليوم، فكم هو نبيل ورائع وشهم! وأنا سأظل بجانبه دومًا مهما حدث، وفي النهاية توصلنا لحل وهو أن يسافر للعمل بالخارج حتى يستطيع تكوين نفسه في أسرع وقت، وبعد ثلاثة شهور وجد فرصة للسفر إلى العراق بفضل الله».

«اليوم هو يوم سفر يحيى وأنا فقط المودعة له في المطار. لحظات صعبة وكنت في غاية الحزن وأنا أصبر نفسي بأن الراحة والسعادة سوف تأتي وأدعو الله أن تمر الثلاث سنوات عليّ سريعًا، وأن أقوى على فراقه. أحضر يحيى معه دبلتين وكانت مفاجأة جميلة لي، وفرحت كثيرًا وألبسني الدبلة في يدي اليمنى وإذ بي أجد نفسي أقول له: لا، ضعها في يدي اليسرى، فأنا سوف أعتبر نفسي زوجتك، وليس خطيبتك، وأنا أعدك أنني سأكون في انتظارك مهما طال الأمد».

«تهلل وجهه فرحًا وغادر وهو مطمئن وكله حماس للعمل والنجاح، وها أنا أنتظر أول خطاب له على أحر من الجمر».

عمر يحاول أن يقاوم النوم ولا يريد أن يتوقف عن القراءة، ويترب مريم يخشى أن تستيقظ وتراه ممسكًا بمذكراتها فتغضب؛ لأن

عمر يعي أنها لا تريد إطلاعه عليها، ولطالما كانت مخبأة عنه، كما أنها دائماً لا تريد الحديث عن الماضي.

تيقن عمر أنها تتحدث عن يحيى والده، ففرح كثيراً أنهما يربطهما كل هذا الحب، وبدأ يتفهم سر حبها الشديد له، واحتضانها له منذ طفولته، وصار أكثر تشوقاً لمعرفة الأسباب التي حالت دون زواجهما وهو يحاول بشدة مقاومة النعاس فأعد كوباً من الشاي وواصل القراءة:

« مريومان على سفر يحيى وأنا على انتظار خطاب منه؛ لأطمئن على أحواله في الغربة بدونه لا أشعر بطعم للحياة، صورته لا تغيب عني لحظة واحدة، وعلى الرغم من أنه لم يمر إلا يومان على غيابه إلا أنني في غاية الشوق له، لقد عشقته بكل وجداني، عشقت تجسد الرجولة فيه، ووجهه الأبيض الجميل، وعينيه ذات اللون العسلي ونظرتها الساحرة، وشعره البني الناعم، وجسده مفتول العضلات، وكل تفاصيله، وكيف كنت أسترق النظرات وأنا معه وأنظر إلى وجهه بخجل، ومن ثم أغض بصري وهو يطيل النظر إلي، وأنا أحاول الهروب بنظري بعيداً، وكم أنا عاشقة لكم الحنان والطيبة التي تملؤه، ودوماً وأنا معه كانت تصاحبني مشاعر بالدفء والأمان لم أكن أشعر بها إلا مع أمي رحمها الله، إنه كالفارس في وسامته وشجاعته وصفاته الرائعة، وأنا أجد فيه الحبيب والأخ والأب، وهو عوض لي عن كل ما ألم بي من حزن حفظه الله لي، وأعاده سالمًا».

في اليوم التالي:

« في الليلة الماضية وأنا أحاول بالكاد النوم تبادرت إلى ذهني فكرة، تذكرت عائلة يحيى، فقد يكن بحاجة إلى المال، فأنا أعلم أن

يحيى قد استنفد كل مال معه في سفره، فعقدت النية على عدم الذهاب لعملي والسفر إلى المنصورة، وفي صباح اليوم كنت لديهن، وعرفتهن بنفسي فأنا أعلم أن يحيى قد أخبرهن عني، وقضيت اليوم معهن، وكنت مسرورة للغاية بلقائهن، وشعرت كأنهن عائلتي، كانوا بسطاء للغاية وفرحوا بي وبمجيئي إليهم، وفي نهاية يومي أعطيت لوالدة يحيى مبلغًا من المال كنت أدخره من راتبي حتى يعينهم على الإنفاق لحين يستطيع يحيى إرسال المال لهم، وقلت لها: إن هذا المبلغ تركه يحيى لهم قبل سفره، وأوصاني أن أسلمه لك؛ رأيت الفرحة في عينها، وأدركت كم كانوا بحاجة للمال، وعاهدت نفسي أن أكون مسئولة عنهم طيلة غيابه، وأزورهم باستمرار، وأنا في طريقي للعودة تذكرت والدي، وعزمت على رؤيته هو وإخوتي فذهبت، وأخبرني والدي أن أعود للمنزل، وأنه سوف يتصدى لزوجته إذا بدر منها أي تصرف سيء، وحاول إقناعي بضرورة العودة، وأنه لا يصح مكوثي وحدي هكذا، ولكنني طمأنته على حالي، وأني قادرة على تحمل المسئولية والاعتماد على نفسي، وبعد ذلك حدثني في أمر آخر، وهو شخص تقدم لخطبتي، فتذكرت أن والدي حدثني مرارًا على الهاتف للمجيء إليه؛ إذن فهذا هو الأمر، تغير وجهي حين سمعت هذا الموضوع، وحاولت التهرب من الحديث، ولكن والدي ظل يتحدث عن مواصفات العريس، وأنه فرصة كبيرة لا يمكن رفضها، فهو طيب أسنان، ومن عائلة محترمة، اعتذرت لأبي وقلت له: إنني لا أفكر في الزواج الآن، فانزعج من كلامي وقال: إنه لا يوجد مبرر لعدم زواجي، ولماذا أرفض شخصًا جيدًا كهذا دون سبب واضح، وتلك المرة لا أجد أي سبب للرفض، فقد رفضت قبل سابق اثنين بسبب أنهما لم يكونا مناسبين، وهذه المرة لا أعلم كيف سوف

أستطيع الرفض، وخاصة أن أبي مصر على الأمر بشدة، فأنا لا يمكنني إخباره بأنني أحب، ومنتظرة شخص حتى يعود من سفره ويتزوجني، لا أدري ماذا أفعل، أتمنى من الله أن يعينني على المواجهة».

يواصل عمر قراءة المذكرات:

« حضر إلي والدي اليوم بعدما عدت من عملي؛ ليحاول إقناعي بالعريس، ودار بيني وبينه حوارًا حادًا. في الحقيقة عندما فتحت له الباب كنت مندهشة لمجيئه فهي المرة الثانية منذ أقيمت في سكني هذا يأتي إلي وتساءلت؛ أبي يبدو منهكًا كثيرًا من صعود السلم، ووجهه شاحب، فهو منذ سنوات مريض، ولا يخرج من المنزل؛ لا بد أن حضوره وراءه أمر هام، وبعد قليل عرفت ويا لصدمتي بعد سماعي لكلماته القاسية، واتهامه لي بأني أخشى الزواج؛ لأنني لست عذراء، وأني أفعل ما يحلو لي؛ لأنني أعيش وحدي بدون رقيب، سامحك الله أبي، فأنا بعمر لي لم أجدك يومًا سيئ الظن بي، ولكن أنا أعرف من التي بثت هذه الأفكار برأسك، هي، نعم، زوجتك التي لم تدع لي مكانًا في منزلك، ودفعني للهرب من نار كرهها، ولم تكثف بكل هذا، إنما الآن تريد تشويه سمعتي؛ ليتك تعود يا يحيى وترحمني من عذابي، وتنقذني، فأنا ما عدت أقوى على كل هذا، والتشكيك في أخلاقي، ولكنني سوف أتحمل فأنا لا يمكن أن أكون لغيرك، أنا لن أنكث بعهدي معك مهما حدث، أنا أعتبر نفسي زوجتك، ولا يمكن لي الزواج بغيرك، ماذا علي أن أفعل؟ وكيف أستطيع الصمود والشك يملؤهم تجاهي؟ يبدو أنه ليس أمامي سوى أن أذهب إلى دكتور خالد وأتحدث معه، وأشرح له ارتباطي حتى لا يذهب لوالدي مرة أخرى، وينتهي الأمر، ولكنني

خائفة مما هو قادم، وإلى متى سأستطيع الثبات ورفض الزواج إذا طلبني شخص آخر للزواج، ورفضت سوف أثبت لهم فكرتهم عني. يا رب أفوض أمري إليك وأسألك المعونة».

مكث عمر يقلب بين الصفحات، ويقرأ اليوميات التي تدونها، وهو هائم ومنسجم للغاية، ولما لا؟ فهو في حالة حب، فكأنما وجد تشابه بين مشاعره ومشاعر مريم العاشقة ليحيى والده إلى أن غلبه النعاس، فأعاد المذكرات إلى مكانها، وكان قد بزغ الفجر فنهض للنوم قدرًا قبل أن يجيء موعد الجامعة، وفي الصباح استيقظت مريم ووجدته مستلقيًا على الأريكة ومتعمقًا في النوم، فأيقظته لكي يذهب لجامعته.

وفي المساء أتى متلهفًا لمعرفة بقية الأحداث:

عمر: «كيف حالك الآن؟».

مريم: «الحمد لله على كل حال، بقيت أفضل، تعبتك يا حبيبي معي أمس».

عمر: «لا تقولي هذا، أنا مهما عملت لن أستطيع أرد جمائلك علينا».

مريم: «أي جمائلك، أنت ابني يا عمر، وأعلى شيء عندي في دنياي».

تقدم نحوها وقبل يدها قائلاً: «ربنا يبيحك لي، أُمِّي تسلم عليك كثيرًا وتريد أن تأتي لتراك».

مريم: «الله يسلمها، هي كمان أوحشتني».

ظل عمر منتظرًا حتى تخلد مريم للنوم كي يتسنى له مواصلة التعرف على ما تبقى، وما أن توجهت مريم إلى حجرتها لئنام، انتظر أن تتعمق في النوم وأحضر المذكرات، وبدأ في القراءة وانجذب لكلمات الحب الصادق، وقلب مريم الذي يعزف أنغامًا، وكم الحب لرجل غائب، ولكنه حاضر في وجدانها، وطيلة الثلاث أعوام كأنما هو متواجد معها، تعيش على انتظار خطاباته لها، وكم مرت بأيام صعبة ومشاكل مع والدها بسبب رفضها الارتباط بغيره، وظلت مترقبة عودته بعد انقضاء المدة المتفق عليها، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، لم يعد يحيى في الموعد المفترض عودته فيه، وبدلاً عن هذا أرسل خطابًا يعتذر فيه عن عدم إمكانه العودة، وتأجيل ذلك دون ذكر أسباب. تلقت مريم صدمة قوية وقلق شديد على يحيى؛ لعدم عودته؛ لأنها لا تعلم الأسباب، وسافرت إلى المنصورة كما اعتادت طوال الثلاثة أعوام لعائلة يحيى متعشمة أن تجد إجابات على أسئلتها، ولكنها رجعت بخفي حنين، ولم تستدل على شيء، ولم يبق أمامها سوى الانتظار والصبر، وبعدما يقارب الشهر تسلمت من يحيى رسالة فحواها أنه سيمكث في العراق عامين آخرين؛ لظروف هامة صبرت مريم وتلقت قدرها بصدر رحب، وتوسمت الخير في المستقبل.

تروي مريم:

«بعد مرور العامين وأنا على حافة الانتظار أترقب عودة الغائب، وأن يحين الفرج، ولقد انقطعت الأخبار، ولا أدري هل حان موعد العودة أم لا؟ مر عامين بعد الثلاثة أعوام التي مضت، وكانت تلك الفترة وعرة، وتمر ببطء شديد، وكنت بالكاد أنام وأعصابي على الدوام متوترة، وكل

ليلة أندب حظي وأنعت نفسي بالبائسة، وكاد يقتلني التفكير والإحباط وأكثر ما كان يشغلني هو معرفة الغموض في هذا الأمر، وماذا ألم به وجعله ينقطع عني. ظللت هكذا في تشتت إلى أن حدث ما غير مجري حياتي. في الأسبوع الماضي سافرت كعادتي إلى عائلة يحيى للاطمئنان عليهم، وعساني أعرف أي أخبار عن يحيى فإذا بي أجده هناك».

«ما أن وقعت عيناى عليه إلا وقد شعرت برأسى دارت بي، وتناثرت بها الأفكار ولبضع ثوان تضاربت بداخلي المشاعر ما بين غضب وحنين ولهفة ودهشة، وأحسست أن قدمي لا تحملني، وتوجهت نحوه وأنا أحقق بنظري فيه، ولم أنطق بكلمة فقد كانت التساؤلات تطل من عيني وهو لا يستطيع النظر نحوي، ويهرب بنظره بعيداً يخشى المواجهة، ولم أنتبه لصوت أمه وهي ترحب بي وتقول لي: تفضلي بالجلوس إلا في المرة الثالثة، ولكن يحيى قاطعها قائلاً أنه يود الانفراد بي، وطلب منهم أن يتركونا وحدنا، وطلب مني الجلوس، وجلست وأنا أنظر في الاتجاه الآخر، ولم أتفوه بكلمة فقط، أنتظر سماع تفسير لكل ما حدث، ووجود مبررات قوية حتى أقدر على مسامحته، وفي الحقيقة كنت أتمنى أن ينتهي هذا الموقف بكلمة واحدة صادقة - أنا أحبك وأريدك أن تسامحيني، ولا نتحدث فيما حدث، ولا نضيع أي لحظة من الآن - وأن يمسك بيدي ويأخذني لأقرب مأذون. استفتقت على صوته وهو يقول: لا يمكننا الارتباط، لا يوجد نصيب، وفي الشهر المقبل سوف أتزوج، وأنا أتمنى لك حياة موفقة مع غيري».

«قطعاً ما أسمع له ليس أكثر من مزحة يحاول بها أن يهدأ من غضبي كي يتمكن من شرح ظروفه. هذا ما دار بداخلي من أفكار».

«نظرت له بنظرة استفهام ودهشة، وقلت له: ماذا قلت؟ هل هذا وقت مناسب للدعابة والاستخفاف؟ قاطعني قائلاً أنه لا يمزح، ونصحني بأن أنساه وأفكر في نفسي فقط، ولكني لم أستوعب ما قاله ورجوته مراراً أن يكف عن هذا الهراء، وأن يتحدث بجدية ويشرح لي أسباب الانقطاع مدة العامين».

«وهو كان يؤكد لي ما سمعت ويكرر مراراً. تلعثمت وحشرت الكلمات في حلقي، نعم، ماذا علي أن أقول أصرخ في وجهه أم أعاتبه على تغييره وجفائه؟ أم أسأله عن أسباب تغييره تجاهي، الموقف كان أقوى من تصوري وكان صادمًا لأبعد ما يكون.. شعرت باحترق بداخلي بعدما أيقنت بأنه لا يهذي، وأنه يتفوه الصدق، وأحسست بأن عقلي توقف كأنما لا يريد استقبال الحدث المفجع، وغادرت منزله وأنا أحترق وقلبي مليء بالأنين، ومضيت وأحزاني مستترة أتوارى عن الناس، أخشى المواجهة، ربما أخشى الشماتة وعدت إلى مسكني كعهدي وحيدة؛ حيث لا أنيس ولا يد تمسح دموعي وتهدأ روعي، ولكنني لن أنكر أن هذا كان اختياري ويا له من اختيار؛ لقد رحلت عنهم ورحل عني الجميع، وها أنا اليوم لا أجد من يواسيني ويخفف عني، واستلقت على فراشي وأنا منهكة القوى؛ لا أفهم شيئاً، ألهذا الحد كنت حمقاء مغماة العينين لدرجة أن لم يتثن لي رؤية يحيى على حقيقته؟ وكيف لي لم أر مخالفه التي كانت يواربها عني بابتسامة زائفة حول شفاه كاذبة؟ فهو ليس إلا ذئب ماكر استطاع خداعي ولكن لماذا فعل بي هذا؟ لماذا أضاع سنوات من عمري هباء وأنا لم أؤذه ولم أفعل معه إلا كل خير؟ ربما كان يُكن لي بعض المشاعر في الماضي، وبعد مرور سنوات حدث له جفاء وتغيرت مشاعره تجاهي، إذن فحبه لم

يكن حقيقياً إن وجد، ماذا علي أن أفعل؟ أذهب إليه وأجثو على ركبتي وأتوسل إليه ألا يتركني، وأذكره بالأوقات الجميلة التي قضيناها سوياً وحبنا الكبير ووعوده لي، والمستقبل، والحياة التي رسمنا ملامحها، وأسماء أبنائنا التي اخترناها سوياً، وأذكره بمساندتي له وانتظاره كل هذه المدة، ومعاملتي لأهله والاهتمام بهم ورفض الزواج ومقاومتي لكل ضغوط والدي.. ولكن هل سوف ينصت لي؟ أم أنه فات الأوان وأن ما أفكر به ليس أكثر من تضييع وقت وإهدار لكرامتي. مكثت على هذا الوضع حتى أشرقت الشمس، وفي النهاية وجدتني أبدل ملابسني وأضع المكياج على وجهي وأهدم نفسي وأتوجه إلى منزل يحيى لمقابلته، وبدخلي عزم على استرجاعه، وبالفعل التقيت به وأول ما انفردت به جذبت يده، وقلت له: إني تشوقت له، وإني أحبه بشدة ونسيت كل ما سمعته، ونظرت في عينه كثيراً وأنا ممسكة بيديه، ولكنه كان يبعد نظره ويحاول التهرب. لم أياس وسألته: لما كل هذا التغيير وضياح الحب؟ فأجابني بأنه لم يكن بيننا حب بالمعني الحقيقي، وأن ما كان ليس أكثر من مشاعر وانتهت، وطلب مني عدم محاولتي رؤيته ثانية؛ لأن موعد زواجه اقترب وهو لا يريد أن أسبب له مشاكل، أتم كلماته وتركني وقد أيقنت أنه لا مناص، وقد قضيت الأمر، ولم يعد لي مكان في حياته. عدت إلى مسكني ومكثت فيه لمدة أسبوع ولم أذهب لعملي، فلقد كنت في حالة من الاكتئاب والزهد في العيش، وعدم الرغبة في أي شيء إلى أن استجمعت قوايا وألممت روعي المتناثرة وعدت لعملي، وحاولت تقبل الواقع والرضا بالمقسوم، وعدم التفكير في الماضي والاجتهاد في عملي، وتحقيق النجاح في مجالي ولكن هيهات للنفس أن تستجيب وتكف عن الأسى، وكيف أنسى وكل

شيء حولي يذكرني نظرات الناس لي لعدم زواجي إلى الآن تذكرني، وأخباره التي لا تنقطع عني فقد بلغني إتمام زواجه والنيان بداخلي اشتعلت، وأيامي صارت تمر بلا طعم وأبي غير راضٍ عني، فقد خذلتة ولم أحقق أمنيته بأن أتزوج وأكوّن أسرة، لقد فات أوان الاختيار وضاعت الفرص فأنا أصبحت في نظر الجميع عانسًا.

كان عمر يقرأ وعينه تذرّف الدموع وهو مصدوم مما عرف عن والده، وتوقف عن القراءة، ودخل غرفة مريم ونظر إليها وهي نائمة بنظرة شفقة بعد أن علم قدر حبها لوالده الذي تخلى عنها، ولذلك لم تتزوج ثم عاود القراءة:

«مر ما يقرب من العام وأنا أعيش بجرحي وألمي، وقد سلبت مني كل أسباب الفرح، ولم يبق لي سوى الحزن، مرت الأيام والشهور عليّ وأنا لا أنسى، وجراحي لم تلتئم ولم أزد إلا سوادًا وكرهًا له، وأنا أشاهده يحيا بسعادة وهدوء ولم يخسر شيئًا، وأنا أتألم وحدي، ونيان الكراهية والحقد تأججت بداخلي، ووجهتي إلى أمر عزمت على فعله وبالفعل أقدمت على الأمر».

«في ليلة أقل نورًا قمت بمحادثة يحيى على هاتف منزله بعد أن أحضرت رقم هاتفه من دليل التليفونات، ودعوته لمقابلتي لأمر ضروري جدًّا في الشقة التي كان من المفترض أن تتزوج بها، والتي قمت بشرائها وفرشها من الأموال التي أرسلها لي وهو في العراق، ووعده أنها ستكون آخر مرة أطلب منه شيئًا، وكنت على يقين من أنه سيحضر».

«كانت أنفاسي تبدو هادئة، وعيني مستقرتان، وأتحرك بخطى ثابتة نحو هدفي ومكثت أنتظره، لم أكن متوترة الأعصاب؛ بل كنت

دافئة للغاية رغم أن تلك الليلة كانت شديدة البرودة، والمطر منهطل، وبرق ورعد أصواته أسمعها أحياناً عذبة في أذني، وبدأت الأفكار تتناثر في رأسي عما سيحدث، هل حقاً أنا بعد دقائق سأفعلها؟ وماذا بعد؟ علي أن أراجع. لا يمكن فعل ذلك.. دارت برأسي أفكار جمّة حتى أتت الساعة المرتقبة، وسمعت جرس المنزل ونهضت وفتحت له الباب. وما أن رأيته حتى انتابني شعور بالحنين، ووجدتني أذوب وأنصهر عشقاً حين نظرت في عينه».

«والم بقلبي المتهالك بقايا حب وعاطفة، ولكن عليّ أن أكف عن هذا الهراء والعبث، فأنا على مشارف التنفيذ ولا فائدة بعد. أخذت نفساً عميقاً وبادرت بترتيب الأفكار التي تغزو عقلي، وقلت له تفضل بالجلوس، وبدا علي وجهه الاستفسار عن سبب طلبي رؤيته، وأجبت بأنه لا زال يشغل مكاناً في حياتي ولم أنسه بعد، وحاول تغيير الحوار وكاد أن يرحل لولا أنني استوقفته قائلة أنني سأعد له فنجاناً من الشاي ليدفئه، واعتذرت له عن تسببي في خروجه في جو شديد البرد هكذا، وذهبت لأحضر له الشاي، ووضعت به قطرات من العقار السام وقدمته له».

«كان يتحدث وهو يرشف الشاي ومع كل رشفة قلبي يتمزق، وبعدما انتهى توجهت نحوه، وجلست تحت قدميه وأمسكت بيده، وقبلتها، وقلت له: سامحني يا أغلى من روحي وحب عمري، أنا حاولت كثيراً أن أنساك وأنسى ما فعلته بي، ولكنني لم أتوقف يوماً عن الحسرة والتألم، وأنا أشاهدك تعيش منطلقاً وسعيداً، وأنا وحدي بائسة! تنهدت وقلت: لم يكن أمامي خيار آخر، نظر إلي وهو لا يفهم ما أعنيه، وقد بدا عليه القلق، وتساءل عن معنى كلامي، ولكنني قاطعته،

وطلبت منه المغادرة، وأنه قد تأخر الوقت، وعليه العودة لمنزله، ومضى وهو مندهشًا، وأغلقت الباب ومعه صفحة من عمري، وبعد أن تأكدت أنه رحل غادرت أيضًا بعد أن قمت بغسل فنجان الشاي، وعدت لمسكني، وفي صباح اليوم التالي سمعت بخبر وفاة يحيى. وبذلك أكون قد أخرجته من حياتي في الواقع، ولكنه سيظل باقياً أبداً في خيالي وروحي، وسأعيش فقط على ذكرياته، نعم سجن الذكريات والحب الذي لا أستطيع أن أحرر نفسي منه».

أتم عمر قراءة ما سبق وهو لا يصدق ما قرأه، ويكاد يجن من الصدمة التي جعلته يلقي بالمذكرات أرضاً، ويركض نحو المرحاض، ويتقيأ بشدة ويكي بكاء شديداً، أمن المعقول أن هذه الأيدي الناعمة التي لطالما كانت ممتدة لي بالخير والحب، هي التي سلبت روح والدي وحرمتني إياه؟ لا أصدق أن مريم بكل ما تحمله من حنان ورقة وأخلاق عالية تفعل هذا، إنها كانت بمثابة أم لي، والآن ماذا علي أن أفعل بعد أن عرفت الحقيقة، وبعد ذلك توجه نحو الغرفة التي تنام بها، ونظر إليها وهو يبكي، ويريد أن يوقظها، كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً وقتها، وتبادرت في ذهنه فكرة بأن يتصل بوالدته ويدعوها للحضور إليه، وهم للقيام بذلك واتصل بوالدته، ولكنها لم تجب؛ لأنها كانت نائمة فلم تسمع صوت المحمول، فانتظر حتى يأتي الصباح، ثم يعاود الاتصال بها، وظل طيلة هذا الوقت يفكر فيما عرفه إلى أن أشرقت الشمس، وتلقى اتصال من والدته التي وجدت مكالمات منه، وأخبرها أن تحضر لأمر ضروري، وبعد ذلك استيقظت مريم من النوم لتجد عمر جالساً منكساً رأسه ويديه يضعها عليها. نظرت تجاهه باستغراب وقالت:

«صباح الخير يا عمر، أنت بقيت ولم تعد لبيتك أمس» عمر لم يجب.

مريم: «ماذا بك؟ هلك حدث شيء ما؟».

نظر إليها عمر بغیظ شديد وأمسك بالمذكرات وأعطائها لها.

مريم: «كيف وجدتهم؟ لا تصدق شيئاً منها، هذا مجرد كلام على ورق».

عمر: «نعم، مجرد كلام عن مذكرات حياتك، مجرد كلام ليس عليه أدلة، لكن على قدر معرفتي يمكن أن يكون هذا الكلام المكتوب بخط يدك، أدلة جيدة جداً إذا قدمته للشرطة والنيابة».

مريم: «أنت لا تفهم، هذا ماضي وانتهى، وأنت لا علاقة لك به».

عمر: «لا علاقة لي بأن من قتلته هذا أبي، ولا علاقة لي بأنك كنت السبب في يتمي، في أن أعيش محروماً من كلمة بابا، وأن أرى الأولاد كلهم مع آباءهم وأنا لا».

مريم: «بعد كل هذه السنين بمنتهى البساطة تجد المذكرات وتقرأها وتعرف، مستحيل كيف حصل هذا يا ربي؟».

عمر: «لأن الله أراد أن يكشفك أمامي».

وبعد قليل حضرت نوال «خير، يا جماعة ماذا حدث؟! ماذا جرى؟ لماذا لا يرد أحد عليّ؟!« قالتها نوال.

عمر: «أمي هذه السيدة هي من قتلت أبي».

نوال: «ما هذا الذي تقوله يا عمر؟».

عمر: «الحقيقة يا أمي هذا الكلام عرفته عندما قرأت مذكراتها».
 نوال: «مستحيل.. الكلام الذي يقوله عمر حقيقي يا مريم؟».
 مريم نظرت إلى الأرض ولم تجب.
 عمر: «يجب أن نذهب الآن ونقدم بلاغًا للشرطة، ونثار لأبي رحمه الله منها».

نوال: «اهدأ يا عمر واترك لي هذا الموضوع».
 عمر: «اهدأ، ما معنى أهدأ، هذا دم أبي».
 نوال: «إذا سمحت يا بني عد إلى البيت الآن ولاحقًا نتكلم».
 عمر: «أنا لا أصدق رد فعلك أنت، هل نسيت أبي، وغير مهتمة، لماذا؟ هل لأنك بعد منه تزوجت وأتيت برجل غيره أخذ مكانه؟ هل سيفرق معك أنها قتلتها؟».

نوال: «اسمعي يا عمر، يجب أن نسامح مريم».

عمر: «ماذا؟ نسامحها».

نوال: «نعم، يا عمر ما سمعته».

عمر: «تريدين أن أعرف أنها قتلت أبي وأسامحها، تريدين أن أُجن؟ إذا كنت مسامحة في حق زوجك أنا لن أسامح في حق أبي، أنفهمين؟ ويكفي أنني عشت طوال هذه السنين مخدوعًا، أناديها بأمي، وأظنها ملاكًا، وهي مجرمة، ليس عندها ذرة رحمة قتلت بني آدم بسبب...».

مريم: «لماذا سكت؟ أكمل كلامك بسبب ماذا؟ بسبب أنني لا أعرف معنى الحب، ماذا يعني أكثر من خمس سنين انتظار، ماذا يعني

أنك تراهن على شخص وأنت ليس عندك احتمال واحد في المائة أنك تخسر رهانك، بمعنى أن تحلم وتعيش ليال كثيرة وتتخيله معك وتنتظر رجوعه ولو حتى بعد عشرين سنة، المهم أن يرجع، يعني أن تفي وتواجه أي ضغوط نفسية ومجتمعية بمنتهى الرضى والصبر لأجله».

نوال: «يا بُني أنت لا تعرف ما أشعر به الآن؛ توجد أشياء كثيرة لا تعرفها».

عمر: «هل ما زال هناك أمور أخرى سوف أعرفها أكثر من هذا؟».

نوال: «نعم يا بُني مثلما كانت مريم السبب في حرمانك من أبيك هي أيضًا كانت السبب في أن أعيش إلى الآن، وأن أكون موجودة معك بعد فضل الله سبحانه وتعالى؛ كان عندك أربع سنين عندما تدهورت حالتني من الفشل الكلوي، وتم حجزني في المستشفى وكنت سأموت وكانت مريم معي وترى الأطباء فاقدين الأمل في حالتي، ولا يوجد إلا أمل وحيد هو أن يتبرع أحد لي بكليته، ومريم هي من طوقتني بجميل مستحيل أن ينسى، وعملت معي ما لم تعمله الأخت، هذا على الرغم من أننا لم نكن أصدقاء وقتها، ولا نعرف بعضًا إلا بعد وفاة أبيك ومع ذلك كانت كريمة ومضحية بهذا الشكل، وأنا أعيش وأتنفس بجزء منها، أتريدني أن أنسى كل هذا؟».

مريم: «أنا عملت هذا من أجلك أنت لا من أجل نوال، نعم هذه هي الحقيقة. أنا قلبي فُتح لك منذ أول مرة رأيتك وأنت عمرك شهرين عندما جئت أزورك بعد وفاة يحيى، فتعلقت بك ولما عرفت أن أمك كادت أن تموت وستحرم منها لم أقدر أن أتحمّل أن تتيتم ثانية، وتُحرم

منها بعدما حُرمت من أبيك بسببي، فكان يجب أن أفعل هذا وأكثر من أجلك، ولو طلبت مني روعي سوف أعطيها لك وبنفس راضية، لأنك أغلى ما عندي، أرجوك سامحني».

عمر: «لو كنت أنت قد قدرت أن تسامحي أبي كنت أقدر أن أسامحك، أنا كل ما أقدر عليه أن لا أبلغ عنك، لكن كل شيء بيننا انتهى، كل صلة تربطني بك انتهت، وشاكر جداً على اهتمامك بي طوال السنين التي مرت، واعتبارك لي مثل ابنك، وجميلك الذي قمت به لأمي، لكن كان من الممكن توفير تعبك هذا كله وتتركين لي أبي كي يعيش».

وخرج عمر وتركهم. وبعده خرجت نوال.

بعد مرور ثلاث أيام أتت نوال لمريم:

نوال: «أنا أريد أن أتكلم معك قليلاً».

مريم: «أرجو هذا، أنا سوف أجن من ساعة ما حدث، أنا غير قادرة أن أتحمل أن عمر كرهني ولن يسامحني، ألم يهدأ قليلاً؟».

نوال: «لا، والله الصدمة كبيرة عليه، وهو يا قلبي ما زال صغيراً على هذا الكلام، من يومها وهو حابس نفسه، ولا يريد أن يكلم أحداً، أنا جئت اليوم بسبب سر يخلصك يجب أن تعرفينه».

مريم: «أي سر؟ خير يا نوال، تكلمي».

نوال: «يحيى لم يكن يستحق منك هذا، كان أحسن رجل في الدنيا، وكان يحبك أكثر من نفسه، لدرجة أنه فضل أن يكون في نظرك خائناً ونذلاً على أنه يصارحك بالحقيقة».

مريم: «آية حقيقة؟».

نوال: «يحيي قبل أن يرجع من العراق بشهرين كان يحس بتعب ولما كشف طلبوا منه تحاليل وأشعة، فظهر أن عنده سرطان، وفهم أن ما بقي من عمره ليس كثيرًا فقرر ألا يرجع، ويطول الغياب عليك حتى تفقدي الأمل في رجوعه وتنسيه وتزوجي غيره، وأن تعيشي حياتك؛ لأنه كان يعرف أنك لو عرفتِ كنتِ ستتمسكين به أكثر، وهو لم يكن يريد أن يتزوجك، وبعد فترة قليلة يموت فتصبحين أرملة، وقال إنه ليس قادرًا على العيش معك وهو يدرك أنه سوف يموت وبعدها أكمل سنتين في سفره رجوع بدون أن يخبرك، لكنك عرفت عندما ذهبت عند أهله».

مريم: «لا لا لا، اسكتي مستحيل مستحيل أن تكون هذه الحقيقة».

نوال: «دعيني أكمل لك أنا كنت جارته في المنصورة، وكنا كالأهل، فقد تربينا معًا، وكل أسراري معه، ولما رجعت إليه أرمي عليه حملي الثقيل، وقلت له: أنجذني لا أعرف كيف أتصرف، فقد كنت على علاقة بشاب ولما نال غرضه مني خدعني وهرب، وأنا حامل في شهرين، لا أعرف ماذا أفعل وأهلي لو عرفوا سوف يقتلونني ساعدني، وكانت مساعدته أن تزوجني وسترني، ونسب طفلًا ليس ابنه له، وأنت تعرفين أنا لا أستحق ما فعله معي، وما قمتِ أنت به معي أيضًا؛ ولأنني قد طمعت فقد خبأت عنك هذا الكلام فقد طمعت في حقلك، نعم طمعت. يحيى كتب لك الشقة التي كنتم سوف تتزوجان فيها باسمك، وقال لي بعدما يموت أسلم لك العقد وأقول لك الحقيقة،

كما طمعت في أرض كان اشتراها وكتبها لأخواته البنات، وهذا هو عقد الشقة أحضرت حتى أبرئ ذمتي، وأرجع لك حقك لعل الله أن يسامحني؛ لأنني أعلم أنني أخطأت كثيرًا جدًّا، وطمعت في غير حقي، وأنا أرى ابني في حالة صعبة والعام الدراسي يمر وسوف يرسب فيه بسبب حزنه وصدومه، ولا أستطيع أن أكلمه وأخبره أن يحيى ليس أباه حتى أخفف حزنه، فأهون عليه أن يحزن وهو يظن أنه أباه من أن يعرف أنه ابن حرام، الآن سيظل حزينًا فترة ثم سينسى، لكن وصمة العار هذه لن يستطيع أن ينساها أبدًا وسيعيش مكسورًا طوال عمره».

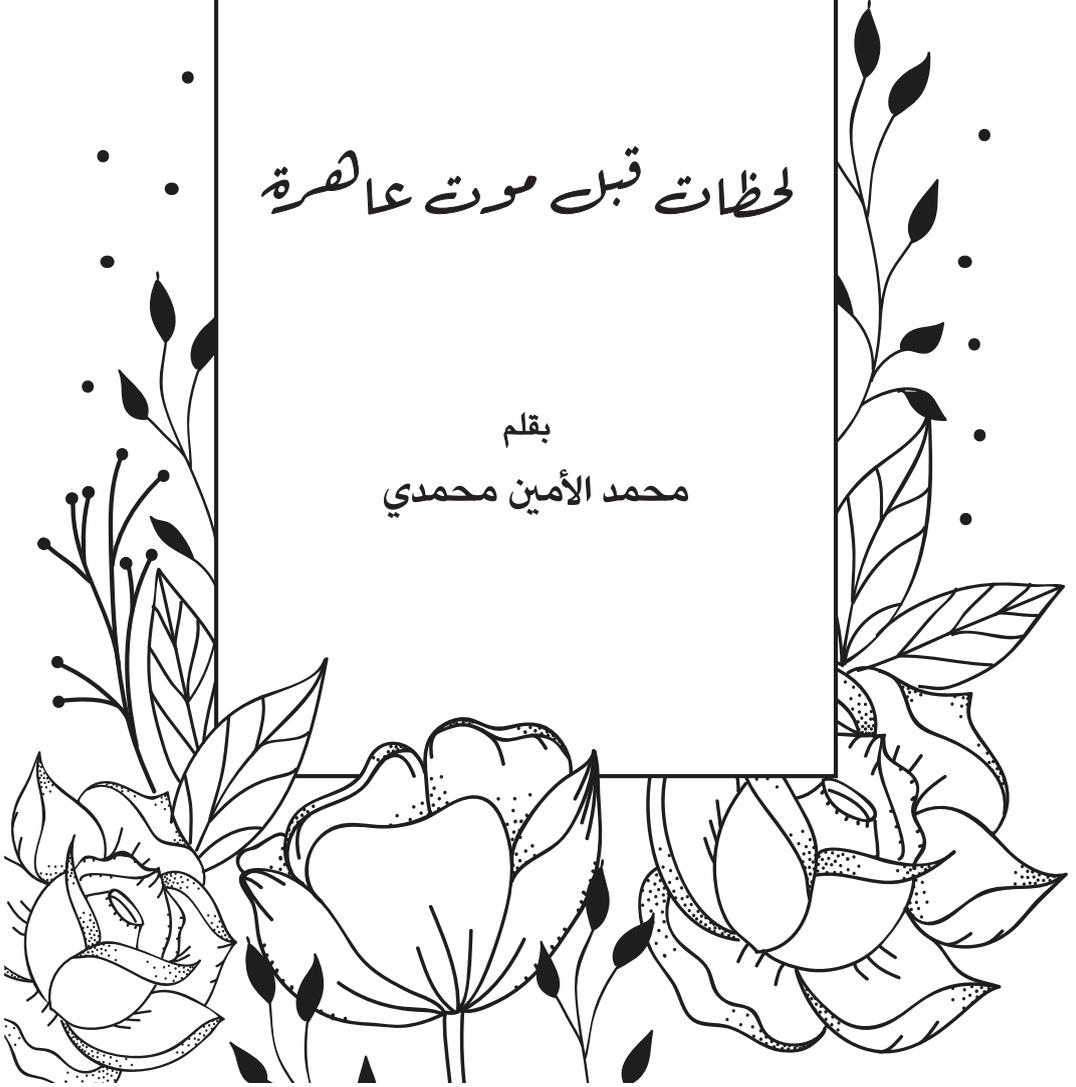
وقعت كلمات نوال على مريم كأنما صبت في جوفها ماء مغليًا. وبعد أن تركتها نوال دخلت مريم الشرفة وجلست تنظر إلى السماء تطلب الرحمة من الله والمغفرة وتسترجع كل ما حدث في حياتها كشريط يمر، وكان الجو شديد البرودة والمطر منهمر ورعد وبرق بالسماء.

لا أعلم هل المرء منا هو من يشقي نفسه حين يتضجر من أقداره، ويسخط على حياته أليس الأفضل أن يرضى بكل ما كتب عليه في عمره حتى لا يدع أيام العمر تمر وترحل كأوراق الشجر التي تتساقط في الخريف.

لحظات قبل موت عالصة

بقلم

محمد الأمين محمدي





تمتمة وتأوهات ودموع تُذرفُ من عين واحدة فقط على هذا السرير، المغطى ببطانية فخمة من الحرير المنتج من بطن دودة أصيلة، وزرکشات قلوب بخيط مطلي بالفضة، وعشر ثوان هن الباقيات على هذا السرير، نفس السرير الذي كانت تمارس فوقه عهرا، نفس السرير الذي حصد الآلاف من القتلى من جنود وأطباء ومفكرين وكادحين، ولربما بضع الأغنياء ورئيس وزراء مستقبلي... لا أحد هنا بالرفة غيرهما؛ نادية وحاصد الأرواح في مباراة من عشر ثوان ابتدأت ب ١-٠ لصالح حاصد الأرواح في ررفة بها من عقب الفجور قوارير من أغلى الأثمان على منضدة خشبية مصنوعة بالتحديد كطاولة مارلين مونرو، فحتى عدة التبرج تلك، والمصاييح على جوانب المرأة نفسها لا زالت المرأة تذكر كل ثانية من المحادثات بينهما، لا زالت تذكر تغزل نادية بنفسها على مرأى منها، كما بذاكرة المرأة سويغات من القُبل الساخنة مع وجوه لا تذكر تفاصيلها، كل ما تذكره دور نادية الأساسي في كل مشهد... لم يتوقف الأنين الآتي من السرير، وحاصد الأرواح شرع يحل معادلة المماس، فتقدير دلنا هنا خروج روح المتمددة، ومحور الفواصل أشرف يحسب الثواني بينما محور التراتيب أعطى معدل مائتي كلمة لكل ثانية، والعد التنازلي قد يبدأ الآن أو في ردة الطرف

الثانية، لا حل أمام نادبة للنجاة سوى مهنتها... بالفعل هي تمارس فعلتها من جديد...

- أتغازلين حاصد الأرواح وسط دَوَامِهِ! وسط إطباقه على روحك وأنتِ في هذه الحالة تحاولين جاهدة ملامسة يده... أتخالينه مكاني يعلم ما يدور بذهنك ليرى تفكيرك الماجن... لا تتماذي بل أوقفني طمعك؛ فهو لا يجيد القُبل كما لا اسم له! فتوقفي عن التفكير... وبينما يتبادلان أطراف الحديث نسيت نادبة أمر صائد الأرواح، وغفلت عن محور التراتيب الذي سرق منها سبعين كلمة، وأخذت تلوم قرينها قمر على تبجحها في مقاطعة تغزلها بغريمها، وها نحن هنا على حافة انهيار الثانية العاشرة قرب لافتة «مدينة الثانية التاسعة ترحب بضيوفها الكرام»، مدخل ضيق وقمر بالغرفة ينتظر موت صاحبه، وهي عاجزة عن الحراك لكن غريزتها الفاجرة تحاول رسم جدول التغيرات كي تعانق قلب صائد الأرواح، مسكينة نسيت حكايات الأجداد فلا قلب لغريمها ولا تعويذة تبطل الألم...

- شعور غريب أليس كذلك؟ أحس بما يحدث في جسدك من تغيرات لكن فرق صغير بيننا سألقي جالسًا على قبرك لن أموت مثلك...

تزيد حسرتها فحتى قمر لا يتألم لألمها، وساعة الجدار تلك تحسب أجزاء الثواني جزءًا جزءًا، ثم بدأت حياتها بالرجوع العكسي كما أحست بركود في سرعة دورتها الدموية واحتارت فلم تعتد يومًا على البرودة كان جسدها مستعدًا دومًا لمعانقة مثيرة فوق... الثانية الثامنة. اعتادت نادبة التحكم بالوقت مع الزبائن وربما تضيف رشة

دقائق إذا أعجبها الزبون أو راق لها، لكن هنا لا رحمة؛ لا الوقت رحيم ولا صاحبه أرحم، لا رشوة تغريه لا شهوة تغويه، لا ابتسامة على وجهه ولا حتى غضب باد وسط عيونه؛ فقط انعكاس ذلك اللوح الذي يدون فيه بعض الجداول تبدو لها حروز غير مفهومة أو طلاس.

صراخ من صورة لها بفستان أحمر قصير معلقة بالجدار؛ تذكرها بأول علاقة ليلية أخذت فيها أجرًا عاليًا، كيف لا والشاب ابن رئيس شركة طيران عالمية؛ تذكرها بفرحة امتلاك سيارة في ساعتين، واكتشافها لسلاح فتاك يكمن بين فخذيها... لكن ما بال الذكريات الآن تبدو شائكة، ولمحت تشطيبًا على خانة أخرى في اللوح لانقضاء ثانية جديدة.

بالغرفة دولاب على يمين السرير من الخشب الأحمر؛ به مرايا على كل باب ترسم صورتها ممددة شاحبة اللون سوداء الأهداب بشفتين رماديتين ولا انعكاس لجليسها، فتح قمر باب الخزانة لتتكشف ملابسها الأنيقة الفخمة المرصعة بفراء الراكون وجلد التماسيح، ولباس هو الأفخر ناصع البياض طرز خصيصًا لها من فرو آخر عنقود من سلالة ذئب التيندرا؛ تلبسه عادة للقاء السفراء والوزراء الأجانب، والوقت يلتهمها والدمع يزيد مع كل ضيق تنفس، مع كل شد عضلي وسط كل الذكريات الصفراء، وعرشة باردة أخرى تزيد العروق ضيقًا. بينما هو يسجل تراتيله على اللوح طُرق الباب، فصرخت نادية بكل جهد بل بأخر ما تبقى من حبها للحياة فنظر إليها بعينه السوداوتين الكبيرتين؛ كأنه يخبرها أن ترفع صوتها أكثر؛ عل من بالخارج ينجدها، ثم يعود لجدوله يحسب جدول التغيرات فربما النهايات تسعفها؛

لتقف على الرمز +∞ في كل الجوانب فتتظر لحظها العثر باحثة عن قرينها... «أين قمر؟ أين هو حين أحجاجة؟».

«أبتحثن عني؟ لن أفيدك في شيء، وصدقتني أفرح مع انقضاء كل ثانية، أسعد حين أعرف بأنك سترحلين قريباً كما أني لا ولن أدعو لك بالرحمة فقد وعظمتك مراراً لكن هواك أغراك... أه أعتذر عن تضيق ثانية أخرى من وقتك وأردت أن أذكرك بأن من بالباب زبونك أي بطريقة أخرى ستموتين والفجور على بابك».

لم تكن سعيدة لا بهمها، ولا بكلام قمر، ولا حتى بحالها، وبدأت تحس بثقل في الأضلع، وارتجاف في كل عرق، كما بدأت الغرفة باكتساب حلة من السواد، لا لم يكن سواداً نعرفه نحن؛ إنه سواد تبعه غرغرة وتقلص في الأعضاء إحساس بالإغماء...

«اعتقدت بأنك ستقاومين أكثر، أردت فقط أن أذكرك بتلك الأيام حين كنت تقولين بأن العالم ملكك، فأين تلك النبرة الحادة في صوتك أين تلك المرونة التي كنت بالملهي تتباهين بها...».

بينما كان يتكلم قمر لاحظت بأن حاصد الأرواح أنهى خانة أخرى، وفلت منها جبل الحساب لكن قمر وغريمها على دراية بالأرقام...

«أحقاً سأموت الآن؟ لكن ما زال لدي حياة أطول بكثير مما عشت لأعيشها، وما هذا الإحساس الخائق فوق صدري كأن شخصاً ما يجلس على قفصي الصدري، لا أستطيع حتى تحريك يدي فما عساي أفعل الآن؟ لا مفاتي ولا حتى جاهي كيف أخلص نفسي الآن... يا إلهي أرجوك...».

«آهههه أتذكرتِ الله الآن؟! ههههه ما أوقحك! أتذكرته الآن بعد أن ضاقت سبلك؟ أين كان إلهك حين كنت أذكرك به كل مرة؟».

التفتت نادية إلى قمر بعيون حسرة، عيونٍ لن تنقذها معادلات أرخميدس، ففي حساب نسبة نجاتها على سلم القسمة الإقليدية سيكون الباقي يعادل نقصان ثمانية أخرى جديدة يشطبها الآن من على اللوح بطمأنينة، أما إذا حضر المكان نيوتن فقانون الجاذبية ذلك لن يخبر عن تركيز الكتلة التي تضغط على صدرها، فلا الذكر ينجيها ولا العهر يشفع. لا شاهد بالمكان يروي عواءها، ولا الجدار الهش يوصل بكائها، ولا الواقف بالخارج... تذكرت بأن شخصًا ما بالخارج يدق الباب، فحاولت الصراخ بقوة، لكن الميترونوم المعلق بالجدار لم يرتجف لصوتها؛ تعجبت فمن عاداتها تحريك عقربه إلى الجهة الأخرى بدون عناء.

لا أمل لها الآن سوى قمر؛ عله يحن أو يرأف، فأخبرته في داخلها بأن الحمل فوق صدرها ثقيل، فهلوس لها قمر بذكريات جزار سمين كانت تواعده، وتتذمر بعد رحيله من وزنه، لكن ردت فعلها كانت بالاستغفار؛ ربما لأن الوقت المتبقي أمامها ثانيتان فقط، فالعدّ التنازلي لم يتوقف أبدًا، أما حياتها فعلى وشك الانتهاء. قريبة جدًا هي من لقاء عذاب لم تكن على دراية بقربه، لا مفر الآن سوى العودة للطريق الصحيح، لن يهّم أي ديانة ستعتنق؛ لأنها تحاول النجاة لا أكثر ولا أقل. لم تستطع التركيز بالقدر الكافي بسبب الطرق المتتالي على الباب.

فربما الزبون القادم في عجلة من أمره، طرق لا متناه، طرق يكل له المتن، طرق محتل غاصب على منزل عجوز صماء... تمامًا في مثل

هذه المواقف يضيع منا الزمن ونحن في عجلة من أمرنا؛ بسبب زيادة في تدفق الأدرينالين، فنعجز عن التفكير بنفس السرعة التي يتحرك بها جسمنا، في حالتها هي المنية توافيها، زاد الثقل على قفصها الصدري، وتصلبت عضلات جسمها، جف الريق في مسمها القرنفلي فأفل، وانطفأت شرارة بريق كريات الدحل الملونة في عينيها، واخشوشنت قصبته الهوائية؛ ليصبح نفسها السكري خشناً لزجاً، لا نعومة الآن في ثنايا يدها الملائكية، وتحول جسد من جنة مليئة بحبات الكرز ولألى الخال والشامات البنية وسط انحدارات الموت المؤدية لكنوز القراصنة المحروسة من ملوك المردة إلى كتلة لحم عفن تتحاشاه الطفيليات ...

«أنى لهته الثروة أن تفنى يا صديقتي؟ أتريدين العيش والرجوع للطريق المستقيم أم أن العهر لا زال يغويك؟ أريد جواباً صريحاً» قال قمر...

فأجابت دون تفكير أو مراجعة:

«سأتوب إن عدت ولو للحظة».

بالرغم من جهلها لما يجري.

ثم تتمم قمر:

«حسناً أيتها العجوز أظن بأنه وقت رحيلك، فانزلي عن صدرها

لعلها ستتهتدي بعد هذا».

ما لم أوضحه حدث خلف الكواليس، فقد اتصل قمر قرين نادية بتلك الجنية العجوز التي يسميها الكثيرون رابوص أو جاثوم، أو كما يسميها غير المؤمنين بالميتافيزيقيا شلل النوم، بعد أن حاول هداية نادية بكل الطرق الممكنة وفشل، لفق لها مشهداً ربما معدله النسبي

لا يتعدى ٢٥, ٠٪ من حقيقة لقاء حاصد الأرواح، أو كما يسمى في ديننا ملك الموت.

حين استفاقت نادية حمدت الله حق حمده على الفرصة التي أُعطيت، لكن الطرق الذي كان بالباب لم يتوقف، حقيقي هو، فنظر إليها قمر نظرة استفزاز وسألها إذا ما ستستقبل الزبون أم ستفي بوعده الالتهاء والاستقامة؟ لم تبد في حيرة من أمرها، وقفت أمام المرأة وأخذت تتأمل جسدها وتفكر، ثم غاصت إلى أعماق بؤرة قد يصل إليها الجنس البشري وقت التفكير، ثم حملت أحمر شفاهها البراق وتعطرت، وأخذت أكبر نفس عهده قمر، وشتت شعرها على كتفيها بشكل عشوائي واستعدت لملاقاة زبونها وقالت:

«سأتوب حين أكبر، لا زلت أتمتع بمفاتي و شبابي».

فنصحها قمر بعدم فتح الباب فقد تندم على فعلتها تلك، لكنها لم تعره ولا ذرة انتباه، وهمت تتمايل وتلحن في صوتها الصداح، وأتت الباب بثدي إلى السماء، وظهر كالتفاف دالة يبرز خصرها الاسفنجي وفتحت الباب، ووافتها المنية غفلة، فحاصد الأرواح أمر بإعطائها فرصة للرجوع عما تصنع، وكان ينتظر منها أن لا تفتح الباب كي ينصرف.

لم يسر في جنازتها أحد ممن كانوا يمتصون مفاتن ذلك الجسد؛ لأن هته اللحظات تذكرهم بمأواهم الأخير، وانفضت جنازتها ولا أحد يزور قبرها، وحتى شاهد القبر حجر، لا كتابة، لا نقش، لا ترَّحُّم كُتِب عليه، لا أحد يجيء أو يذهب، كل القبور يزورها أهلها إلا قبر نادية يتحاشونه في همس:

«هذا قبر عاهرة».

رفيقها الوحيد قمر يجلس مكبلاً إلى الأرض منتظراً يوم البعث؛
كي يتخلص منها ويدون كل ما شهده...

يعطينا الرب فرصاً لا تُعد ولا تُحصى كل يوم؛ كي نرجع للطريق
ونتوب إليه، إلا أن طبيعتنا البشرية العاهرة تختار الفجور في كل مرة،
ثم نندم فتحرقنا النفس من ندمنا بمقولة غرنا الشيطان، والشيطان بريء
في كثير من الأحيان مما نفعل ونفتعل، نحن فقط نسعى بكد لا متلاك
بطاقات ذهبية؛ كي نفترش من مارج الجحيم عروشاً نقعد عليها؛ كي
يكون عذابنا أضعافاً...

يوليوس

بقلم

شاربي سيف الدين محمد





مساءً يوم تمتزجُ بسماؤه خُيوط الشمس الصفراء وزُرقة السماء الصافية؛ لترسُم صورة بهاء على سُهول قرية «تريفولي» الخضراء بضواحي «روما» مدينة التاريخ العريق، مع اقتراب ظلمة الليل المألوف لأهالي القرية الذين كانت الظلمة حياتهم الطبيعية بسبب الكنيسة، السُلطة الوحيدة والفكر المظلم الذي اعتبر العلم كُفراً، الجهل كان تاج إيمان ينال شرفه القوم التُّبع، في عصر البذخ والرفاهية لحاشية الاستبداد وظلام العقول والبطون للبسطاء الذين يفقدون حياتهم أحياناً في سبيل لقمة العيش.

كان الشاب «يوليوس» العامل بمزرعة لأحد مستبدي زمنه، الذين يعيشون بالمدينة بينما ثرواتهم تُبنى بأيادي البسطاء وعرق الفقراء، من أجل جُبن وخبز آخر النهار، أو قطعات نقدية ستكفيهم ليقبوا يوماً آخر بهذه الحياة البائسة، في نفس الوقت كان «يوليوس» يتجه للمنزل يُفكر في عائلته الصغيرة التي لن تتحسن أحوالها أبداً، وأخته الصغيرة التي لا زالت تظن بأن للأحلام مكان بهذا العالم، فتنام سعيدة وتستيقظ مُستبشرة على الرغم من أن يومها يضيع برفقة والدها المريض، لا تدري بأن أحلامها لن تتحقق وهي بالقرب من فراش رجل ينتظر النهاية، حتى والدتها التي اعوجَّ ظهرها، وداهمها المشيب

لم تعد قادرة على العمل بأي شكل من الأشكال، فيستسلم «يوليوس» ككل مرة للظروف التي جعلته يُكرس ربيع عُمره لخدمتهم، يقف على باب البيت مُحدثًا نفسه (وصلتُ سريعًا)، يسمع صُراخ أخته بالداخل: «ماما أنا جالئة»، يدخل مُصطنعًا ابتسامته، إجابته تسبق سؤال أمه: «أنا بخير».

لم يتناول عشاءه ليلتها فقد داهمت عيناه جنية الأحلام فأسالت عليه من صندوق الأحلام، فرأى أنه ببلاد يتحقق بها ما يُرى بالمنام، علم أنه نام نومة لم ينمها من سنين حين أخبروه على طاولة الإفطار بأنهم حاولوا إيقاظه مرارًا.

قبل الجميع بعينه الدامعتين بدمع سال على قلبه لا خده، التقط كيس حاجياته واتجه للعمل.

تحت ظل أشجار الكروم التي تقي العمال من شمس حارّة، سمع «يوليوس» اثنين يتحدثان بصوت خافت عن بلاد بالشرق يحدث فيها أن يُشفى المريض، ويعيش الإنسان كريمًا، وتُبنى الأحلام بغير مشقة، نال الفضول منه واتسعا بؤبؤا عينيه أملًا، واقترب منهما سائلًا، ردًا بنظرة الاستغراب، فبدى لهما صدق قلبه فرد أحدهما: «نعم إنها بلاد بالشرق المسير إليها شهر على خيل السفر بها علماء وأناس طيبون، يعيش بينهم الفقراء، هكذا قيل لنا»، قطع حوارهما مرور أحد مستبدي المزرعة، اختفى الرجلان فيما بعد لكن الفكرة علقَت في ذهن «يوليوس».

بات ليلته مُتأملًا سقف عُرفته غير مصدق بأن هناك بقعة في هذا العالم اللثيم يُمكن أن يعيش بها الإنسان حياة كريمة غير آبه بمضايقات

القدر، غير مصدق بأنه مستيقظ ظاناً بأن حلم ليلة البارحة لا زال يُراوده منذ سماعه تلك الكلمات من زميله بالمزرعة، بات فرحاً مسروراً لم تفارق الغبطة مُحياه، تأمل طويلاً السقف ثم انكب على وجهه، أخذه ذلك الأمل الضئيل إلى نوم سعيد خفيف ليستيقظ قبل الجميع، استقام في جلسته سريعاً بنشاط لم يعتده، بدأ يبين ضوء النهار ولاحت الشمس بخيوط أشعتها لتخرق نافذته، حدث نفسه طويلاً بتعابير حُزن وندم وكلمات نسجتها له حالة أبيه الذي يُشفق عليه، وأخته التي يرى فيها براءة وأحلاماً سُرعان ما ستموت تحت وطأة القهر الذي يعيشونه، ووالدته التي تبذل من روحها لكي يعيشوا، استسلم لدموعه التي بللت خديه.

في جانب آخر من العالم حيث لا يبكي الرجال قهراً، كانت فتاة عربية شديدة سواد العينين طويلة القامة، بيضاء لون بشرتها يُسرّ كل من يراها، تُضفي على سوق «دمشق» جواً من بهاء بضحكتها العفوية، تقضي حوائجها بين الرجال والنساء في بلدة عمها الرخاء. سُرعان ما عادت لمنزلها لتنادي عليها أمها: «رُميساء، لدينا ضيوف الليلة».

لترد الجميلة: «حسناً أمي أعود للسوق؟».

نادت الأم: «لديك ما يكفيك من المال بنيتي؟» لكن رُميساء سبقتها.

اتخذ «يوليوس» قراره سرّاً، لم يُرد إخبار أحد، أخذ في جمع كل حاجياته، كل ماله المدّخر استطاع به كسب واحدة من خيول السفر، خبأه لدى صديق مؤتمن ليخرج به صبيحة ذات يوم، استيقظ صباحاً

تناول فطوره، قبل الجميع على غير عادته، غلب شعور الأم فأحست بالغرابة، بكت فالت قبلة أخرى، وخرج ظانًا الجميع بأنه متوجه للعمل.

على طاولة العشاء يجلس والد «رُميساء» وعمها يتبادلان أطراف الحديث عن سير التجارة وكيف أن القوافل التي تتجه نحو الهند تعود بسلع جديدة كل مرة؛ فعمّها بائع حرير بسوق دمشق الكبير وتاجر معروف، أخذ يُحدثهم حين اجتمعت العائلة عن مغامراته.

خاصة «رُميساء» التي تشتاق لحديث عمها وقصص مغامراته التي لا تنتهي؛ خاصة حين يبدأ بالحديث عن الليالي التي يقضيها في الصحراء وأصدقائه التجار وسمرهم حول النار التي يُضرمونها؛ لكنه أبدًا ما حدثهم عن قُطاع الطرق؛ الذين يفرضون عليهم ضريبة؛ لأنه يُعتبر بطلاً في نظر ابنة أخيه، ولا يحب إفساد تلك الصورة أبدًا.

أما على بعد رحلة شهر غربًا فقد كانت عائلة «يوليوس» تبكي ابنها الذي لم يعد حتى الساعة، خائفة من غطسة صاحب المزرعة الذي يُمكن أن يكون قد قتله.

بات الحُزن رقيقًا لهم ليلتهم، أخته الصغيرة التي بفضلته تختبر أول مصائب الدنيا بفقدائها لسندها وأمانها أخيها الأكبر، ووالدته التي تُركت وحيدة تُحارب قدر أوروبا الذي فرض على كل منزل آنذاك، ووالده الذي طالما كان يشعر بالفخر؛ لأنه سيترك رجالًا للعائلة فقتل فيه شعور الاطمئنان الذي كان سيجعل من موت الرجل رحيماً، لكن العائلة تُشفى بمرور الأيام وبفعل النسيان الذي كان نعمة لهم، فأعاد الزمان خياطة الجزء الممزق منهم، وفي الأيام التي كانوا مشغولين

بنسيان «يوليوس» كان هو يشق طريقه من قرية لأخرى يسأل عن أرض الأحلام التي سمع عنها، حالته المُزرية وجوعه الذي يتواصل ليومين متتاليين أحياناً، وخوفه من العصابات وقُطاع الطرق ليلاً كانت كلها تتبدد في وجه الأمل الذي انطلق به أول مرة، وعزمه على الوصول نحو أرض الأحلام التي نسجتها مخيلته فقط من كلمات غريبين بمزرعة.

ربط حصانه بشجرة ونام بقرب أخرى ليرتاح قليلاً ويواصل مسيره، لكن أصواتاً عالية متداخلة أيقظته مفزوعاً؛ لتقابله صورة تعود أن يسمع عنها من رجال يعملون معه عن حروب شاركوا بها، كانوا مجموعة رجال مُلثمين يمتطون أحصنتهم.

أول ما تبادر لذهن «يوليوس» الذي ترتعش يده خوفاً أنهم مجموعة قُطاع طرق سُرعان ما سيقتلونه، أو على الأقل سيسرقون حصانه وسينتهي حُلمه هنا، تحدث أحدهم بصوت عالٍ ولغة غير مفهومة، «يوليوس» يرفع يديه عاليًا مُستسلماً ويُشير لحصانه وكيس الدراهم آملاً في أن يفهموا بأن هذا كل ما يملك، يُحاول أن يخبرهم بأن يأخذوا ماله، حين توقف فاقداً الأمل بأن يفهموه، تقدم الرجل الذي يبدو زعيمهم ليُقدم له كيسا من العُملة النقدية مشيراً له باتجاه لكي يسلكه، يُشير للجميع فرحلوا منصرفين بعيداً، بقي مذهولاً حتى اختفوا، لم يعرف أيُشعر بالسعادة لأن الرب وهبه فرصة أخرى وأملاً جديداً أم لأنهم لم يقتلوه؟ أسرع بحصانه متجهًا مثلما أخبره المثلثم الغريب.

بعد مسير يوم كامل ذُهل بالمنظر الذي رآه من على تل يُطل على مدينة بدت شوارعها ضيقة ومنازلها تقترب من بعضها، لاحظ غرابة البناء

الطويل على جانب منازل كبيرة وشكلها الدائري الغريب الذي لم يعهده في «روما»، دخل المدينة غريبًا يمشي بين الناس فلا أحد اقترب منه ولا حارسًا يسأله، صادف عند السور الأول للمدينة السوق، كان هناك رجل يجلس على طاولة خياطة ذو لحية بيضاء طويلة وذنب شعري تديان بالقرب من أذنيه، يرتدي قبة سوداء طويلة ولباسًا أسودًا بالكامل يرمقه بنظرات غريبة، ناداه فاستجاب «يوليوس» متخوفًا، ألقى السلام فرفع «يوليوس» يده، سأله بلغته فقفزت عيني «يوليوس» فرحيتين.

سأله: «هل أنت من بلاد الملك «فيليب»؟»، استغرب «يوليوس» ثم ليثق؛ أخبره بأنه يهودي مُتعلّم يتكلم لغة أهل البلاد واللغة التي يتحدثها «يوليوس»، وبأنه بإمكانه مساعدته فذلك واجب ديني عند اليهود.

تعهد العجوز اليهودي لـ«يوليوس» بأن يُساعده في الوصول للمكان الذي يريد؛ إذا ما ساعده في عمله أيامًا قليلة ريثما تمر القافلة التي تتجه للشرق، بقي مدة رفقة العجوز الذي وظّفه بكل الأعمال الشاقة التي لا يستطيع القيام بها فكان يرسله لشراء الكتّان، فيضطر للتواصل مع أهل البلاد، سُرعان ما بدأ يتعلم لغتهم، كان يُوصل اللباس لبعض الزبائن فيتجول ببعض أزقة المدينة، فهم فيما بعد أن تلك البناءات الطويلة مآذن يُنادون فيها لصلاتهم، بدأ يتأقلم مع اللحظات التي يبقى فيها السوق فارغًا حين يذهبون لتأدية صلواتهم، لم يُعد صوت الأذان غريبًا أبدًا، أصبح ينام ليلاً فبدى بصحة أحسن مما كان، فهو لا يضطر أن يحرس مكان عمله فلا سرقة بسوق هذه البلاد، الأمان والسلام، هذا الذي افتقده ببلدته، لاحظ أن الجميع بشوش، وأن الناس تُعامل بعضها

بعضًا على الرغم من اختلاف دياناتهم، لاحظ أنهم مُتعلّمون عكس أبناء جلدته، بدأ يفهم كيف تسير الأمور هنا، علّمَ بأنه في «إسطنبول» العظيمة حتى أخذ يتساءل أهذه اللجنة التي أردت الوصول إليها؟

في مكان أقرب للوصف من «إسطنبول» تتحضر «رُميساء» رفقة والدتها للخروج إلى المسجد القريب، حيث تلتقي نساء الحارة لتنظيفه فيوم الزينة قد اقترب، تُساهم كل نساء الحارة بتنظيفه؛ فيُنظف الأفرشة ويمسحن الغبار ليبدو نظيفًا لصلاة العيد لديهم، «الجامع» كما يسمونه، معلم تاريخي بارز تركه الأجداد قائمًا فيُحافظ عليه كل شخص هناك فيجتمع تُجار القرية وأهاليها لتزيينه حين المناسبات مثل شهر رمضان، وتجتمع النساء للتنظيف حين يحتاج لذلك، فكانوا يغرسون احترام ذلك المكان المقدس بقلوب أولادهم، دخلت «رُميساء» تحمل قصعة مكدوس (أكلة معروفة بدمشق)؛ لتجتمع النساء حولها في جو رويحي بهيج امتزج فيه الشعور بمسؤولية التدين ومسؤولية المجتمع.

انطلق «يوليوس» مُودعًا إسطنبول بعين تدمع فرحًا لما ستلقاه، وأخرى تدمع حزنًا لما خلفت، كان الشيخ اليهودي قد أودع في جيبه ما يكفيه لرحلته، ودّع «يوليوس» المدينة التي ظن لوهلة أنها مدينة الأحلام، خرج منها شخصًا آخر غير الذي وصل إليها أول مرة، فذلك الفتى الذي كان يظن بأن أكبر هم للناس ضمان قوت يومهم أصبح يدرك أن هناك من يهتمهم التكاثر بينهم لتكوين مجتمع متكامل حيث لا مكان لفقر على الرغم من اختلاف الديانات والفكر، كيف إنهم استطاعوا توفير الأمان ببلادهم والاطمئنان بقلوبهم، فازدهروا في تجارتهم، وتوفرت ظروف العيش الكريم لديهم.

مرت الأيام بسرعة والليالي أسرع، واقتربت القافلة من «دمشق» قبلة كل الناس، ومعبر القوافل القادمة من أوروبا والعائدة إليها، في «دمشق» العربية التي يحكمها المسلمون ويعيش فيها اليهود والمسيحيون، ويمر بها البوذيون وحتى المجوس، فيستقبلهم المسلمون ويرحبون بهم، وينزلون عندهم، ويلقون منهم حسن الخلق وطيب المعشر؛ حتى أصبح لا فرق بين أحد، وعمّت الحرية، وصار الإسلام مطلب الجميع، فلا أحد يمكن أن يرى المثالية بمدينة كتلك، ولا يطلب سر ازدهارها، فعرف الإسلام حينها انتشارًا بفتوحات الأخلاق لا فتوحات السيف، نادى مُنادي القافلة أنها وصلت «دمشق»، ودع «يوليوس» قائد القافلة سائلًا إياه عن مكان السوق حيث يمكن أن يجد ضالته، فقد سبق له وأن علم بأنه المكان الوحيد الذي يمكن لغريب أن يجد عملاً به، كان يرى في كل رجل ذو لحية بيضاء صديقًا، استطاع التواصل مع أقرب محل من أجل العمل، لم يجد صعوبة في التواصل فقد تعلم الكثير في «إسطنبول»، قوبل بالفرض كثيرًا لكن حظه مع اليهود كان جيدًا فقد قبل بائع عقاقير يهودي توظيفه، وسرعان ما نال ثقته بعد أيام، فقد رأى فيه من النشاط والحماس وسرعة التعلم ما يجعله مفيدًا للمحل، كان عربون الثقة من اليهودي لـ «يوليوس» السماح له بالمبيت في المحل، فبعد كل تلك المدة كان يستحق ذلك، فقد بدأ يكسب أصدقاء وجيرانًا في السوق، وبدأ يفهم كيف أن التعايش مع جميع فئات الناس ممكن؛ فجارهم صاحب محل الكتّان رجل مسيحي، والمحل المقابل ملك لرجل مسلم يعمل به شاب مجوسي؛ قد أتى من الشرق لأرض الأحلام هاته، وهو مسيحي آخر يعمل لدى يهودي، كان قد فهم كيف أن الإنسانية أسمى من الدين، فالإنسان للإنسان لا المسلم للمسلم أو المسيحي للمسيحي.

حزينة «رُميساء» بسبب مرض والدها المفاجيء وحائرة، استدعت الطبيب الذي وصف لها مجموعة عقاقير بذلك المساء حيث اتجهت للسوق في وقت متأخر بعد جدال مع والدتها، كانت أغلب محلات السوق مغلقة لكن دلها صديق والدها على محل عقاقير يُغلق متأخرًا، توجهت مسرعة فوجدت شابًا أوقفه صوتها متأملًا بهاءها طويلاً، نادته مجددًا فكأنه استفاق.

- «سيدي هل يمكن أن أجد لديك ما كُتِبَ بالورقة؟».

أمسك الورقة وعيناه تكاد لا تفارق عينيها بعد، سيدتي: «هذا دواء لمرض»، ردت بينها وبين نفسها: (وماذا غير ذلك يا ذكي!)، لم تكن تعلم أنه أسر في نفسه كون الدواء لا يُطلب للعلاج إنما لتأجيل أسوأ ما يمكن أن يحدث فقط.

نالت طلبها وغادرت مُسرعة.

مُنهمكًا في إعداد طلبية لزبون حتى ناداه صديقه المجوسي، وغمز له لرؤية الفتاة التي زارته بوقت متأخر بالأمس، حدث نفسه (رأيتني أيضًا!؟)، لاحظت «رُميساء» «يوليوس» يُسقط طبق القرفة ذاك وصراخ العجوز التي أفسد لباسها بسبب عينيهِ اللتان عانقتا عينيها، أسرع في مشيتها ضاحكة، بدت أسعد من أمس (مُحدثًا نفسه).

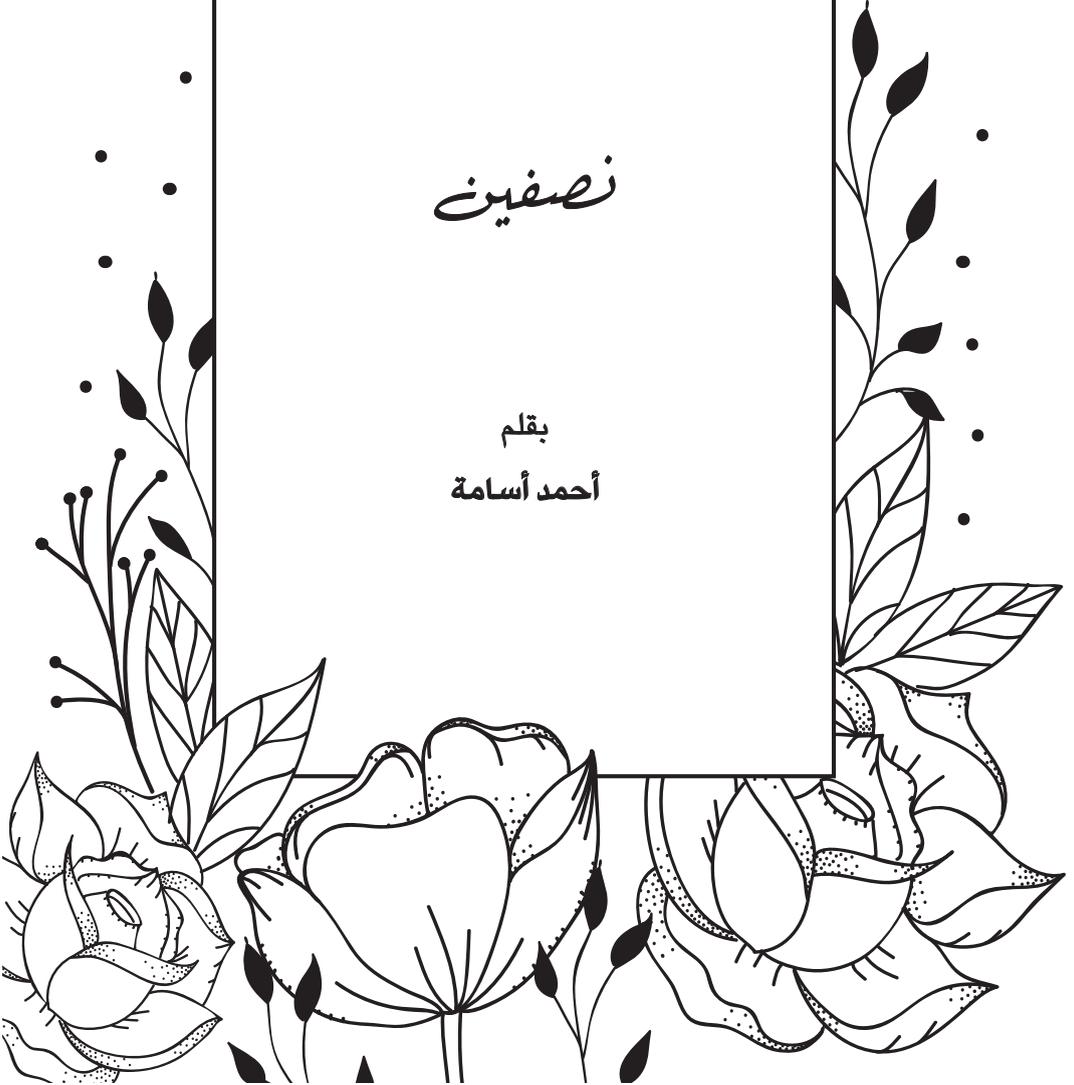
بات ليلته بالمحل كعادته ليرى في منامه العجنية التي زارته ذات ليلة مُبشرة إياه بأرض الأحلام، تُبشره بحياة تتحقق بها الأحلام.



نصفين

بقلم

أحمد أسامة





كان هناك في أحد الأيام فتاه تدعى نور؛ تعيش هي وأسرتها في قبيلة في إحدى الغابات. تتكون عائلة نور من خمسة أفراد (والديها، وأخوها الرضيع، وأختها التي كانت تكبرها بستة أعوام)، كانت أيام القبيلة تسير كعادتها حيث كان الرجال بعضهم يذهب للغابة ليحصلوا على الطعام وجلد الحيوانات للحصول على فرائها، أو للحصول على بعض من الحطب، أما النساء فكانت تهتم بأمور القبيلة من تنظيف وتحضير الفراء، أو توضيب موائد الطعام. كانت نور تتصف بالسرعة والنشاط فكانت تنجز مهامها في وقت قليل، وتساعد الأخريات في عملهن، ويتبقى لها ساعتان قبل الاجتماع للطعام فكانت تسير في الغابة، ولكنها لا تتعد عن مكان القبيلة تحاول البحث عن شيء جديد، وتحاول معرفة الحشرات والحيوانات حتى تسمع صوت فروع أشجار تنقصم، وأصوات صياح يصاحبها تغني، فتعرف أن رجال القبيلة عادوا ومعهم الطعام فتعود مره أخرى للقبيلة.

تجتمع القبيلة ويبدءون في الأكل، وعندما يتتهون تقوم النساء لتجلب ثمار الفاكهة الطازجة ليأكلوها. عندما تبدأ الشمس في الغروب يجمعون بعضاً من الحطب ويشعلون النيران فيها، ويلتفون حولها، ويأتي حكيم القبيلة صاحب الألف عام - كان يكبرهم بمئات السنين -

ويقص عليهم إحدى القصص التي يعرفها حتى يأتي الليل فيناموا، ومن إحدى قصصه التي لا تنسى:

«لقد كانت أرض هذه القبيلة قبل أن تأتي إليها أنا ومجموعة أخرى أرضًا للسحرة، نعم للسحرة، كان يجربون التعاويذ الجديدة، وكانوا يسجلونها علي الأشجار والصخور حتى يرثها من يأتي من بعدهم، صاروا يلجؤون إلي الغابة لكي يجربوا هذه التعاويذ على الحيوانات، وكانوا يعذبونها أشد العذاب، وعندما أتينا لم نعد نراهم أو نسمع عنهم، وقام أكبرنا حكمة وعمراً بتحسين القبيلة حتى لا يدخلها أية سحرة، بل حصن الغابة بأكملها، وأخبرنا أنهم سوف يحاولون الانتقام لأنفسهم، ولكنهم منذ ذلك الحين لم نر لهم أثرًا، فأغلقتنا هذا الموضوع، ولكن كان يجب أن أخبركم بها حتى أكون أتممت لكم جميع ما حدث منذ وطئت أرجلنا هذه الغابة، وكم كانت مليئة بالكره، والآن تغيرت تمامًا». كانت هذه عادة القبيلة لا جديد عليهم سوى قصص الحكيم في يومهم الممل، واستمرت الأيام على هذا النحو.

حتى استيقظ أهل القبيلة في يوم من الأيام في منتصف الليل؛ لسماعهم صوت أحد يتقيأ، فذهبوا جميعًا لمصدر الصوت ووجدوا أنه الحكيم، فذهبت النساء سريعًا لمحاولة تحضير مشروبٍ ما لتخفيف هذا الألم على الحكيم، ولكنه أخبرهم بأنه يشعر أنها نهايته، سمع أهل القبيلة هذا الكلام وقع عليهم وقع الصاعقة على آذانهم. أخذت النساء تبكي والرجال ساكنة لا تدري ماذا تقول، قاطع صوت الحكيم هذا كله وقال لهم في صوت متقطع:

«لا، لا تبكوا ولا تحزنوا إنه خيرٌ لي أوقدوا النيران..».

وأخذ صوته يتقطع واحمر وجهه وعيناه حتى أصبح شكله مخيفاً، وتكتلت الدماء في أطراف يديه وأصابعه، ثم انقلب على الأرض، وأخذ يحرك رجليه ثم هدأت حركته وانقطعت أنفاسه.

علم أهل القبيلة أنه قد مات، فقاموا لتجهيز مراسم دفنه. استمر الحزن لعدة أيام متواصلة، بل أسابيع حتى قاموا بتعيين رئيس للقبيلة يدير شؤون القبيلة، وكان تلميذ الحكيم الذي مات، ولكنه لم يكن ذا حكمة، وكان يميزه أنه عالم بأمور السحر وغيرها، كان يطلقون عليه اسم حكيم؛ لأنهم قد تعودوا علي ذلك أن من يرأس القبيلة حكيم وليس إنسان بسيط مثلهم.

عادت أمور القبيلة كما كانت حيث يذهب الرجال لإحضار الطعام والثمار، وجلد الحيوانات، والنساء وعملهن في القبيلة، ونور عاداتها تنتهي من عملها سريعاً، وتنطلق في الغابة لمحاولة معرفة كل ما هو جديد.

أثناء تحركها في الغابة لمحاولة إيجاد ما يلفت نظرها من حشرات جديدة أو حيوانات مختلفة عن التي تعرفها؛ رفعت إحدى الأحجار لترى بأسفلها نوعاً جديداً من الحشرات أو الديدان، وإذا بها تجد شيئاً عجيبياً؛ لقد وجدت أحرف منقوشة تشبه الحروف السحرية التي كان يرسمها الحكيم قبل مماته علي الأرض؛ لإضافة متعة إلى القصة، فأثارت فيها الفضول وأخذت تقرأها وتردها حتى اختفت أشعة الشمس، وقامت الحشرات والحيوانات بعمل دائرة حولها، وهنا أحست أن روحها تذهب منها، وجدت نفسها ترتفع في السماء ورقبتها معلقة كما لو أنها تستعد لتشنق على حبل الإعدام؛ عينها حمراوان

وتنزل منهما الدماء، وجهها أسود، وأخذت تصيح بصوت عال جدًا حتى سمعها أهل القبيلة بأكملهم.

حاول الرجال أن يخترقوا هذه الدائرة المكونة من الحيوانات ولكنهم لم يقدرُوا؛ كأن هناك حاجزًا ما يمنعهم على الرغم من أنهم أخرجوا السكاكين، وأصبحوا يطيطون رقاب الحيوانات؛ إلا أنها تقف مكانها ولا تتحرك، أخذت تتنفس بسرعة إن نفسها يضيق مرة تلو الأخرى، صوت نبضات قلبها أصبح مسموعًا، وأخذت تردد كلمات، والحيوانات تردد وراءها في مشهد عجيب، ثم حل الصمت ووقعت برأسها على ذلك الحجر التي نقشت عليه الأحرف السحرية، والتي كانت تشير لتعويذة ما، وسال الدم من رأسها على الحجر عقب اصطدامها به، وجرت الحيوانات والحشرات.

حملها الرجال وذهبوا بها سريعًا للقبيلة لعلاجها فقال لهم الحكيم:

«اتركوها لي وأحضروا لي قماشة ما؛ لألف بها رأسها حتى أوقف الدماء».

نامت المسكينة نور في سرير الحكيم لمدة أسبوع كامل، وبدأت تفتح عينيها وترى المكان الذي يحيط بها مشوشًا؛ لا تقدر على رؤيته واضحًا، جاء صوت ما وقال:

«لقد أصبحت بخير يا صغيرتي».

حاولت توجيه عينيها على الشخص لكنها خمنت من صوته أنه الحكيم، وبعد فترة صغيرة استطاعت أن ترى جيدًا، وحاولت النهوض ولكنها لم تستطع قال الحكيم:

«استريحي يا عزيزتي، ستكونين بخير».

فيما كانا يتكلمان نور والحكيم دخلت أمها وإخوتها كعادتهم كل يوم للاطمئنان عليها، وعندما وجدوها سليمة معافاة علت صيحات الفرح، ووصل لأهل القبيلة فتسارعت النساء على بيت الحكيم للاطمئنان عليها، وعادت النساء لعملهن مرة أخرى سوى أم نور، فأمرها الحكيم أن تتركهما لشأنهما قليلاً.

دار حوار ما بين الحكيم ونور:

«ما الذي حدث يا نور؟ هل تتذكرين شيئاً ما؟».

نور: «نعم، أتذكر شيئاً واحداً فقط، وهو أنني رفعت إحدى الأحجار فوجدت بعض الحروف فقراءتها، ولا أدري ماذا حدث بعدها؟ ولكنني الآن أحسُّ شيئاً غريباً جداً».

«بماذا تشعرين؟ هيا أخبريني» سألتها الحكيم والخوف في عينيه.
ردت نور: «أحسُّ أنني النصف، أحس أن جزءاً مني ليس موجوداً أفهمني؟».

ضحك الحكيم وقال: «لا لا، إنه مجرد إحساس فقط؛ لأنك نائمة في السرير منذ أسبوع كامل».

قالت: «أسبوع! مؤكد أن هذا السبب. شكراً لك يا حكيم».

الحكيم: «انتبهي لنفسك ولا تخرجي للغابة مرة ثانية، ولكن أتذكرين هذه التعميذة التي قرأتها، هل تستطيعين كتابة أحرفها؟».

قالت: «نعم، أتذكرها جيداً، لقد كانت مكونة من أربع أحرف».

وأخذت ترسم الحروف، ولكنها كتبت حرفين فقط ولم تستطع

تذكر الباقي.

الحكيم: «ها هيا يا نور حاولي مرة أخرى أن تتذكري البقية». نور: «ولكنني كنت أتذكرها، سوف أحاول». حاولت مرة واثنين ولكنها لم تستطع. فأمرها الحكيم بالانصراف، وأنه سوف يبحث عن نتائج هذه التعويذة.

مرت الأيام في القبيلة ولكنها لم تمر بسلام أبداً، فقد بدأت سلسلة من حوادث القتل، قتل نصف رجال القبيلة في يوم واحد، وكان بعضهم بدون رأس، والدماء في كل مكان، وأنهار الدم تجري، والورد تشم منه رائحة الدماء، ولم ينجُ من تلك الحوادث إلا رجلٌ واحد أخذ يقص عليهم ما حدث:

«لقد كنا نختبئ للفريسة كعادتنا، وقمنا بعمل دائرة وعندما قفزنا للانقضاض عليها تحولت إلى امرأة ذات وجهٍ أسود وعينين حمراوين، وأخذت تقتل فينا و..».

توقف الرجل عن الحديث وانتشرت النيران في جسده تأكله أكلاً كما تأكل الحطب حتى أصبح رماداً؛ حتى الماء الذي صب عليه لإطفائه لم يفده بشيء.

انتشر الخوف بين أهل القبيلة وذهبوا جميعاً للحكيم، وأخبروه بما حدث، فوجدوه يحاول معرفة التعويذة التي أثرت على نور أو نتائجها.

فقال لهم: «اجتمعوا الليلة، ولا يخرج أحد من دائرة الطعام».

«لك ذلك» قالها أحد الرجال.

اجتمع بهم الحكيم وبدأ يتكلم:
«لقد أصابت القبيلة لعنة ما، وأعتقد أن السحرة الذين تحدث
عنهم الحكيم السابق تحاول الانتقام».

قاطعه نور: «ولكن كيف ذلك؟ أليست القبيلة والغابة بأكملها
محصنة منهم؟».

قال الحكيم: «لا بد أن التعويذة التي قرأتها هي التي فكت
الحصن».

صاح الرجال وانقلبوا عليها، والنساء أيضًا، وأخذ الصوت يعلو
ويعلو حتي صاح الحكيم وقال:
«اسكتوا، ما هذا؟».

قاطعتهم نور وقالت: «لو كانت التعويذة قد فكت لكانوا
هاجمونا منذ أسابيع».

سكت الجميع لصحة رأي نور، ثم أكملت كلامها فقالت:

«لا يمكن أن تكون التعويذة السبب في فك الحصن، وذلك
لأن الحكيم قد قام بتحصين الغابة أولاً قبل أن يفكروا في عمل تعويذة
لفك الحصن، ولو كانت هذه هي التعويذة لماذا لم يستخدموها لفك
الحصن؟».

خيم الصمت على أهل القبيلة، وعبر الحكيم عن إعجابه
بكلامها، وهنا اطمأن الناس قليلاً بعد سماعها، وانقضى الاجتماع
ببعض الشروط وهي: ألا يخرج الرجال للصيد ليومين أو ثلاثة،
والاكتفاء بالطعام الكثير المخزن.

مر اليوم الأول بدون أي حادثة قتل واحدة، فاطمأن الناس لذلك واليوم الثاني فالثالث فالعاشر، وعادت الأمور لطبيعتها، وخرج الرجال فتأخروا فعلم الحكيم أن أمرًا ما قد حدث فقال لنور:

«هل تودين مرافقتي؟».

قالت نور: «إلي أين؟».

رد الحكيم: «إلى الغابة، سوف نبحث عن رجال القبيلة لقد تأخروا».

قالت: «حسنًا».

ظلوا يبحثون عنهم ساعة وراء ساعة، وهم يتحركون سمعوا صوت أحد يجري خلفهم، فركضوا المكان مضية حتى يروا هذا الشيء، ولكن الحكيم قد أسرع في الجري فوصل إلى مكان مضية قليلًا، ونظر خلفه فلم يجد نور، فأخذ يصيح حتى وجدها قادمة نحوه وسألها:

«أين كنتِ؟ لماذا لم تلحقي بي؟» لم ترد.

قاطع سؤاله هذا الهدوء الذي حل صاح الحكيم:

«من أنت؟ وما الذي تريده؟ هيا أخبرني».

فجأة تحول وجه نور إلى اللون الأبيض، وأصبحت عيناها مليئتين بالسواد، وأخذ الدم يتكتل في يديها، وارتفعت قليلًا في الجو فلم تعد أرجلها تلمس الأرض، وصاحت بكلمات غير مفهومة، ودبت النار فيها فأصبحت كقطعة لحم معلقة تشوى، والدم يسيل ويسيل حتى أن الحكيم قد خاف، وأخذ يتراجع ولكن سرعان ما انقطع صوت هذا الشيء العجيب الذي كان يدور حولهم، ونزلت نور وعاد وجهها إلى

الشكل الطبيعي.

أحست نور وكأنها كانت نائمة، واستيقظت فقالت نور:
«ما الذي حدث؟».

نظر الحكيم إليها بخوفٍ وسكت وقال:
«لا.. لا شيء، هيا لتتحرك».

ظن الحكيم أنها هي الروح التي قتلت أهل القرية، فحاول أن يذهب إلى مكان بعيد عبارة عن منطقة خضراء لا يوجد بها لا أشجار ولا شيء، يضيء القمر المكان وكأنه مصباح معلق علي بعد مترين طولياً ليلقي عليها تعويذة ليقتلها، ذهب هو ونور إلى هذه المنطقة، فوجد جثث الرجال ملقاة على الأرض وهي عارية لا يسترها شيء سوى الدماء، وكان القمر لم يلق بضوئه لأول مرة على هذه المنطقة، ولكن فجأة ظهر نور القمر واختفى.

لاحظ الحكيم أن هناك حروفاً على أجساد الرجال المصفوفة، وكأنها أعدت للدفن، قرأ الحروف فوجدها تكون جملة وهي: (مات جديد) (ارجع إلى قبيلتك).

أضاء نور القمر فلم يجد ولا جثة واحدة من جثث الرجال، فأخذ يركض، أما نور فوفقت مصدومة من هول هذا الموقف، ولكنها استجمعت قواها وجرت وراءه بأقصى سرعة، ولكنه قد سبقها، سمعت نور أصواتاً ولكنها لم تلتفت إليها حتى وصلا إلى القبيلة، أخذ الحكيم يطمئن على أهل القبيلة فرداً فرداً حتي وصل إلى خيمة أم نور وأختها وجدهاما نائمتين، ولكن الرضيع يبكي؛ لم يرتح بال الحكيم، فطلب من نور أن توقظهما.

أخذت نور توقظهما فاستيقظت أمها قالت:

«هل هناك خطبٌ ما؟».

قالت: «لا.. لا يا أمي».

حاولت مرة بعد مرة إيقاظ أختها الصغرى ولكنها لم تستيقظ، نادت الحكيم بصوتٍ متقطع وهي تبكي، فأخذت أم نور تبكي هي أيضًا، وارتفع صياحها، فقال الحكيم بصوت عالٍ:

«اصمتي، دعيني أرى ما الذي حدث؟».

أخذ يضرب بضع ضربات خفيفة على خديها، ولكنه أحس بشيء غريب، ففتح فمها لم يجد لها لسانًا، وكأن من قتلها قتلها حتى لا تخبر أحدًا بما رأته عنه.

ظل البكاء مستمرًا، وبكى الحكيم من هول ما رآه في يومه هذا من منظر الرجال، وهذه الطفلة التي لا تدري شيئًا، فكر في الخروج من الغابة ولكنه لا يدري ما قد يحدث خارجها، إنهم محصنون وهذا كله يحدث، فإن خرجوا فلا يضمن حياة فردٍ واحدٍ فقط من أهل القبيلة.

أخبرهم الحكيم بما حدث لرجالهم، فاستمر البكاء والصياح من زوجات الرجال، وزوجات الرجال الذين قد مات أزواجهم في الحادثة الأولى، واستمرت الأيام حالها كحال الطفل الصغير دائم البكاء.

جهزت مراسم دفن الصغيرة أما الرجال فقد اختفوا لا أثر لهم.

حاول الحكيم أن يفكر في أي حل يخلصهم من هذا البلاء الذي وقعوا فيه، علم أن الحل في هذه التعويذة التي قرأتها نور، وأنها السبب في كل هذا، فصار يقضي نهاره وليله في البحث في ورق التعاويذ عن الحل.

كانت أم نور مصدومة مما حدث لابتها فظلت مستيقظة لأيام متواصلة، فكانت تجلس خارج الخيمة تستنشق بعض الهواء لعله يُجدي، ولكنها سمعت ابنها يبكي، ولمحت ظلًا داخل الخيمة فأخذت تجري حتى رأت شيئًا لونه أسود، أصابها الفضول وعرفت أنها لن تنجو من الموت، فأخذت تدقق في ملامح وجهه ولكنها ذهلت لما رآته!
«نور هل هذا أنت؟».

ولكن هذا الشيء الأسود شبيه نور أمسكت الرضيع وقامت بقتله بأظافرها أمام أمه بلا رحمة، صاحت الأم، ثم وقعت على الأرض، وانطلق هذا الشيء بعيدًا ولم يقتلها.

ركضت نور بعد سماع صوت أمها إلى الخيمة، وكانت تجلس مع إحدى صديقاتها في الخيمة المجاورة، فوجدت أمها ملقاة على الأرض.

نور: «أمي ما الذي حدث يا أمي؟».

أشعلت المصباح في الخيمة فرأت أخاها غارقًا في دمه، هذا الطفل الرضيع ما ذنبه؟!

نادت نور: «يا حكييم يا حكييم».

جاء راکضًا فسأل نور:

«ما الذي حدث؟».

ردت قائلة: «لا أدري، لقد وجدتها هكذا، ووجدت أخي مقتولًا».

وأخذت تبكي وما أكثر البكاء الذي حل على القبيلة.

لامس بإصبعيه رقبة أمها، فوجد أن الدم ما زال يسري في جسدها، وأنها فقط مغمى عليها، أخرج الحكيم شيئًا ذا رائحة نفاذة، وقربه من أنفها فأخذت تكح وأفاقت.

صارت تتنفس بسرعة كبيرة جدًا مرة وراء مرة، وصوتها يتقطع: «لقد لقد .. رأ... رأيتها إنها... نور هي... التي قتلت... هي التي قتلته لقد رأيتها».

«أنا يا أمي؟». ردت نور متعجبة وقلقة.

قالت: «نعم، كيف يمكنك أن تقتلي إخوتك؟ لقد رأيتك، ورأيت ملامحك السوداء كقلبك هذا، كيف فعلت هذا؟».

نظر الحكيم إلى نور وصمت، وأخذ يتذكر ذلك الذي حدث في الغابة.

قالت نور: «لقد كنت في الخيمة المجاورة، ألا تتذكرين أنك قد سمحت لي بالذهاب؟ انتظري» ركضت نور وجلبت صديقتها؛ لتخبرهم الحقيقة وقالت: إنها كانت جالسة معها، وقد أكدت على كلامهما أم صديقة نور.

سكتت أم نور وحملت ابنها الرضيع المقتول، وقربته إلى صدرها، وأخذت تبكي حتى توقف نفسها من كثرة البكاء، سكتت للحظات ظلت تتنفس سريعًا، وصوت أنفاسها يصبح أسرع فأسرع، ثم أحسوا بحركة غريبة خارج الخيمة. خرج الحكيم ونور إلى الخارج ليعرفا ماذا يحدث، لم يجدا أحدًا ولكنهم رأوا ظلًا أسودًا داخل الخيمة، أسرعوا بالدخول فرأوا أم نور ملقاة على الأرض ووجها أسود. علم الحكيم أنها قد ماتت.

أخذ الحكيم نور بعيداً؛ لأنه من الصعب أن ترى فتاة كل هذا يحدث أمامها ويقول لها:

«الآن يجب عليك أن تتذكري باقي أحرف التعويذة؛ لننقذ باقي أهل القبيلة».

ظل يفكر فيما قالته هذه الأم، وكيف يمكن أن تقول هذا عن ابنتها دون أن يحدث؟ إنها أم لا يعقل أن تقول هذا إلا إذا حدث. دُفنت الأم والرضيع معاً وهي تحضنه، ومر يومان على مقتلها حتى أصبح الشك يملأ رأس الحكيم، فأكمل البحث عن التعويذة، فقال لنور:

«هل تستطيعين رسم باقي الحروف، أرجوكِ تذكيري، حاولي مرة وألف».

ظلت نور تحاول مرات عديدة حتى وصلت إلى الحرفين المتبقيين، فتلهف الحكيم للبحث عنها حتى اندهش الحكيم مما حدث. انطفأ المصباح فأناره، ولكنه لم يجد نور، أخذ يكمل البحث عن التعويذة وهو يعرف أنه إن لم يسرع لن يجد حلاً أبداً حتى وجدها، انطفأ المصباح وأضيء من نفسه، فوجد نور جالسة أمامه حتى بدا له الأمر كأنه هو الذي تخيل أن نور ليست أمامه.

«هل وصلت لشيء؟» قالتها نور في صوتٍ هادئٍ قد طمأن الحكيم قليلاً ولا يدري لماذا.

«أخيراً لقد وجدتها» أخذ يقرأ بعينه أولاً.

قالت نور: «حسناً هيا أخبرني».

قال: «لقد كُتبت هذه التعويذة على الأحجار، وعلي لب الأشجار، وعلى الحيوانات وغيرها؛ التعويذة تعمل على تحويل الإنسان إلى ساحر شرير، ولكن يبقى جسده الطيب لكي لا يعرف أحد، وتطلق الروح الشريرة في السحر؛ لتعم بالخراب، وكانت هذه أهم التعويذات التي اخترعت منذ وجود السحر، هذا يفسر أنك كنت تشعرين دائماً بأن جزءاً منك مفقود، ولم يكن من أثر النوم في السرير لأسبوع، الآن يتضح كل شيء، الروح كانت تعلم كل ما كان يحدث أو سوف يحدث، وكأنها كانت معنا».

نور تكمل: «والآن فهمت لماذا قالت أُمي أنها رأَتني! حتى أنت لم تلاحظ عدم وجودي عندما وقعت في الغابة ونحن ذاهبون للبحث عن الرجال، فتركنتي وذهبت بمفردك إلى داخل الغابة.»

قال الحكيم: «ماذا؟ ماذا الذي تقولينه؟ لقد كنتِ معي أنا أتذكر ذلك».

قالت: «لا، لم أكن معك، لقد تركنتي بمفردتي وعدت راکضة إلى القبيلة».

تذكر الحكيم نور وهي معلقة في الهواء والوجه الأبيض فعلم أن من كان يسير معه ليست نور، بل إنها النصف الشرير منها. استمر في قراءة باقي سطور التعويذة لإبطالها. وجد الحل ولكنه يؤدي إلى موت الروحين.

قال الحكيم: «نور هل أنتِ مستعدة للموت؟».

قالت: «ماذا؟ لا أفهم».

قال: «تنص تعويذة الإبطال على موت الروحين هل..».

قاطعته نور: «ها جهزها أنا أتقبل ذلك؛ لقد ذهبت كثير من الأرواح بسببي، وبسبب الفضول الذي حل بالخراب على قبيلتي».

شروط التعويذة: (قم بعمل دائرة تصل أشعة القمر فيها إلى مركز الدائرة - ضع دمًا من الجسد الطيب - بعضًا من الحطب يعطي نفس شكل الحروف - ضع الجسد الطيب في الدائرة وابدأ في قراءة التعويذة المكتوبة بالأسفل).

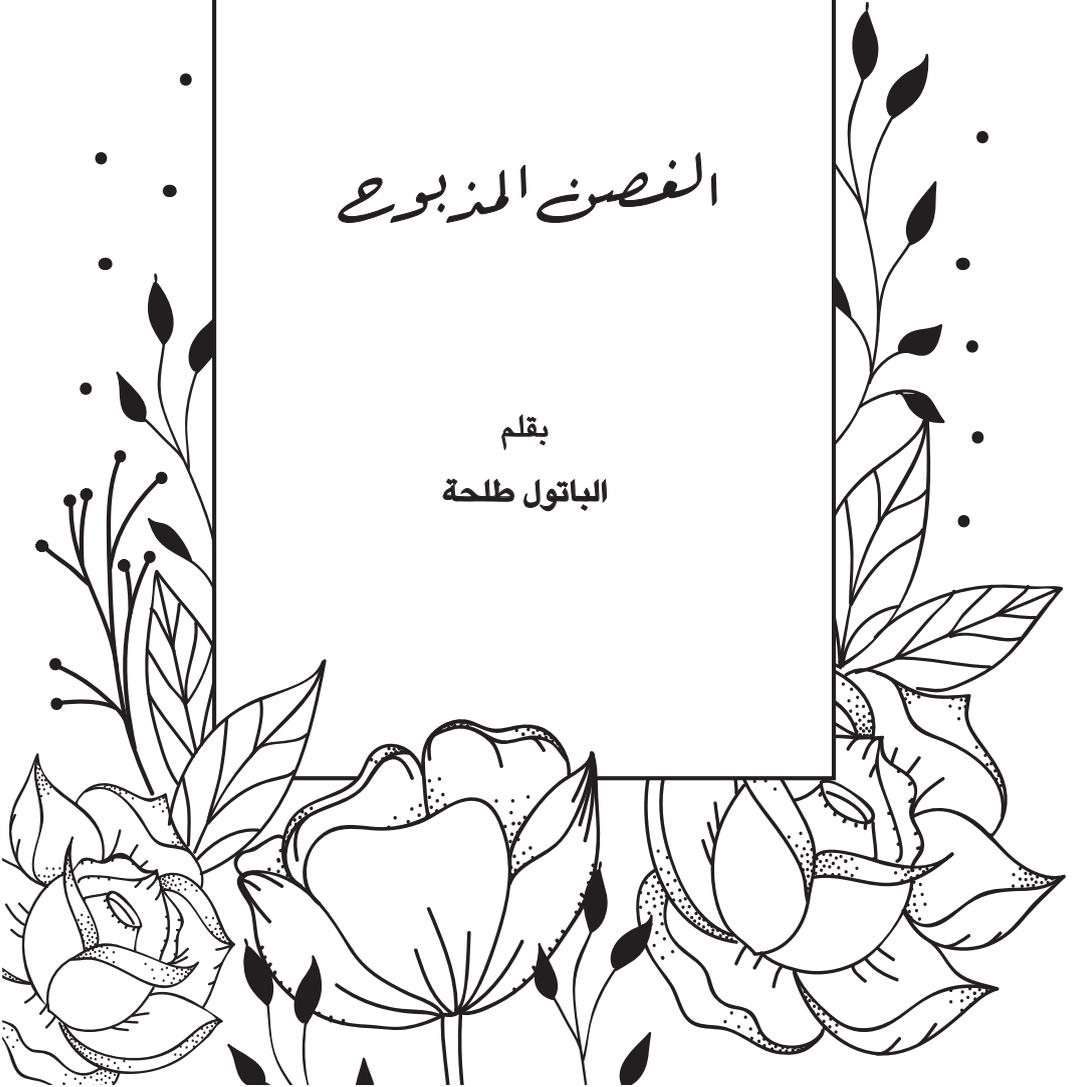
جهز الحكيم كل ذلك وطلب من نساء القرية عمل الدائرة وجهزوا كل شيء ودخلت نور إلى الحلقة، وبدأ الحكيم في قراءة التعويذة.

ارتفعت نور من على الأرض، ولكن هذه المرة كانت على ارتفاع عال بكثير من المرات السابقة، وأخذ يردد كلمات التعويذة، وبدأت صيحات نور تملو، وصوت ألمها مسموع وتبكي والدماء تسيل من عينيها. تحول وجهها إلى اللون الأبيض، جاءت الرياح حاملة جسدًا أسودًا معلق من رقبتة كأنه علي جبل الإعدام يصيح ويتألم، لكن صوت الحكيم ليس كافيًا، فأخذت النساء ترددن الكلمات ولكن أسرعن في التريد، وأخذت صيحات نور تملو وصيحات الجسد الأسود تملو، بدأت الدماء تنزل على كلمات التعويذة المكتوبة بالحطب وكأنها جمرات نار قد سقطت، أشعل الحطب وانتشر في جسد نور ونصفها الشرير الآخر، وأخذ يأكل في جسدها قطعة قطعة، وعلت أصواتهما معًا حتى اعتم القمر وأنار، ولم يعد هناك نور ولا جسدها الأسود.



الفن المذبوح

بقلم
الباول طلحة





تقديم: أحداث القصة لمجاهدين وشهداء جزائريين حقيقيين - ١٩٥٠/١٩٦٢ - (المسيح، رياض، لحسن البكاي، محمد، حمزة، المنفق، والد وأخ المنفق، الحاجة يمينة)، تم مزج جهادهم مع أبطال خياليين ليصنعوا ملحمة بفلسطين

أريام: «البشرى، البشرى... لقد عاد الأبطال منتصرين..».

(يهرع السكان فرحين، فتزغرد النسوة ويكبر الرجال، ثم يصل المجاهدون).

المسيح: «أكرمنا بالجهاد وفضلنا بهذا الدين على كل دين، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، الحمد لله».

الحاجة يمينة: «بوركتم يا مجاهدين، بكم تحرر القدس وبدمائكم تعطر..».

المنفق: «رحمة الله على من استشهد، والجهاد لمن بقي حيًا..».
يزداد السكان فرحًا، وبعد الصلاة والوليمة الشرفية يجلسون في حلقة كلهم).

أريام: «أحسنتم بتصديكم لهم وتلقينهم درسًا في القتال حتى لا يتجرؤوا على وطأة جبلنا وأشجارنا المباركة».

القائد لحسن: «وقفنا في تدمير الكتائب الأربعة، ونجى منهم القائد و٣ آخرون».

المنفق: «نحن نسير للوطن والباقي على الله..».

(فجأة جاء الفدائيان يلهثان مسرعين، فيفزعون).

الحاجة: «ما خطبكما محمد وحمزة؟».

حمزة: «عذراً لكن.. سوف تحدث كارثة هنا سمعنا أنباء تعسة

مشؤومة».

محمد: «القرية ستباد مع أشجار الزيتون، هذا هو البيان الجديد،

خبر آخر، يتعلق بعائلة المنفق، قُتل الأخ وأخذ الأب إلى المجهول..».

(يُصدم الأهالي والمنفق بالخبرين فيصمتون ثم..).

المنفق: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، رحمة الله عليكم يا

شهيدين».

امرأة: «كيف فعلوا هذا بعجوز بريء ويافع لا ذنب له وقد حرره

المنفق من الأسر قبل مدة متنكراً كأنه امرأة بكساء؟!».

رياض: «سنحمي القرية مهما حصل».

(يغادر المجاهدون القرية، فيودعهم الأهالي...).

أريام: «أستودع الله دينكم، وأماناتكم، وخواتيم أعمالكم».

(في مقر الأعداء عُوقب المخفقون خاصة بعد مجيء القائد

الجديد).

كورييلا: «نفتالي أنت عار علينا، كيف سولت لك نفسك الجبانة

هذه الفعلة البغيضة؟».

فتالي: «أنا آسف بشدة يا سيدي، لقد كان تكتيكهم محكمًا،
وانشغلنا بالبحث عن القرية أكثر من المعركة».

(وفعلاً يُعدم رغم استرجائه الطويل، هذا هو آشير كوربيلا
الكولونيل الجديد، مشهور بالقسوة اللامثيل لها وبالشدة والمكر
والحيلة وبغرابته العجيبة...).

(أما قريباً منهم في المدينة عاد أخو محمد الصغير وحمزة وأريام
وابن الحاجة يمينة وابن أخ الشيخ البكاي وابن خالة المنفق وابن عمه
رياض والمسيح... * الأسطورة الجهادية * نضال * بحيث حُكم عليه
بالإعدام وهو قاصر لنشاطه فهُرب لبلاد مجاورة، وهاهو عاد اليوم).

نضال: «أبعدت عنك مجبراً، وذكر شهدائك حطم وجداني،
شوقي وحيني سبقتني فحرقا قلبي قبل أن تبرده ثلوجك يا أرض
النبيين، عدت لك ومن أجلك غاليتي فلسطين».

ثم قصد محل العطور، إنه لماريان السيدة المسيحية.

نضال: «المعذرة، لدي طلب يا سيدة..».

ماريان: «الأسطورة نضال، نحن في خدمتك».

نضال متعجباً: «عفوًا! لكن كيف تعرفيني؟ ولماذا تخاطبيني

هكذا؟!».

ماريان: «لا يهم هذا. وإن كنا من ديارتين مختلفتين، فكلانا عاش
وترعرع بين أحضان هذه الأرض المباركة... ونحن نكافح لها ولها
نفني أنفسنا!».

نضال: «هل أنتِ مكافحةٌ أيضًا؟».

ماريان: «بطريقتي الخاصة، المهم جئت تريد بعض الخلطات والعطور الفعّالة؟!».

نضال: «يا سبحان الله! كأنك قرأت أفكارى».

ماريان: «اقسم على الوفاء والصمود لأجل إعادة جلال وعظمة فلسطين من جديد، وأشهدك كما أشهد الله على أنني للعهد فداء..».

نضال مبتسمًا: «حسنًا وهو كذلك!».

(فجأة تُسمع ضوضاء في الخارج، إنهم جنود كورييلا، فتشير عليه بالاختباء، ويفعل ذلك، فيقتحمون المكان).

جندي: «المعدرة سيده دوكار، نحن نبحت عن هاربٍ يُدعى

نضال!».

ماريان: «عودوا من حيث جئتم. محلي للمسيحيين وليس لكم

أوله ولأمثاله!... انقلعوا فورًا».

جندي: «كفالك إهانات رجاء، فقد أهنت أخاك الكولونيل السيد

كورييلا معنا من قبل، فقنا شرك!».

(يصعق نضال لهذا الكلام، تغضب جدًا وتطردهم).

نضال مدهوشًا: «شكرًا لمساعدتك. أنا ممتنٌ لك،؟ أنت...!».

ماريان بحسرة: «أجل، أنا ماريان كورييلا أخت النذل آشير

كورييلا. لا تفرح فأنا على عهدي وعداوتي له تماثل عداوتكم له أيضًا

أو أشد وإن كنا أخوين، فما فعله بالمسيحيين جائر أيضًا، هو مجرم

وسجله أسود».

نضال متعجبًا مبتسمًا: «بارك الله فيك، رغم اختلافك عنا إلا

أنك مذهلة بحق... ويا للمفارقة فعلاً!!!».

(الشيخ والمجاهدون في المغارة).

المنفق: «نحن في خطر، لذلك علينا الاستعداد، لكن ينقصنا السلاح والذخيرة فمن سيحضره؟».

رياض: «إذن لي يا شيخ بالقيام بهذه المهمة! أرجوك..».

الشيخ لحسن: «المهمة خطيرة جدًا خاصة التطويق المفروض على الجبل».

رياض: «قلت لك أرجوك وأرجوك تهز الجبال. أستحلفك بالله أن أذهب..».

البكاي: «استحلفتني بالله فهزمتني!.. اذهب متوكلاً... موفقاً».

(ومضى رياض جسورًا يقضي مهمته الصعبة، ونجح في نقل السلاح إلى المخبأ القريب من المغارة، نقله من بيت الحاجة يمينة؛ لأنه المخزن السري، ولما عاد ليأخذ بعض الوثائق وهي تنتظره أيضًا، أغتيلت أثناء فتح الباب وهو طورد إلى أن وصل لممر مغلق فيفجر المكان، ويستشهد، وعاد الناجون من الجنود ليخبروا أشير بمكان القرية ولما علم فرح واغتبط جدًا).

(وصل الخبر إلى مسامع المجاهدين فكبروا، وقصد نضال البيت فصدّم بما رآه فاحتضنها...)

ثم قام بدفنها، يعني أنّ الجريمة حدثت في غياب أريام وريهام الأخت الصغرى، لكن أخبرت الكبرى لما عادت... وفجر نضال البيت قبل رحيله. والآن توجه للمدينة ليأخذ شيئًا من محل دوكار فهو جما مجددًا).

ماريان: «أهرب يا نضال! أهرب معك مارلين ابنتي لتطبيكم وتساعدكم...».

(يحاول منعها فتدفعه مجبرة إياه على الهرب مع ابنتها من الباب الخلفي، ويقتحم الصهائنة محلها بعد أن حطموه، نجى نضال ومارلين بينما تتفحم ماريان بمحلها جراء المحرقة التي منحوها لها نعش نهايتها ويريان ذلك!).

مارلين صارخة: «أمي! (ناحية) اللعنة عليكم... قضيتم على أمي يا سفاحين!!».

(تصرخ وتندب باكية ودموعها جمر).

نضال مواسياً حزيناً: «إهدئي أرجوك، إفخري بها فهي كانت صلبة جريئة!! والدتك سقطت بشرف فكانت بذلك فداء للجليلة فلسطين!».

مارلين غاضبة: «أصمت أنت! ما أدراك بفقدان الأم؟ ما أدراك؟ ألا تملك قلباً كالبشر...؟!».

نضال: «أدري؛ لأنني فقدتها ووالدي يا مارلين!».

(يوقع كلامه فيها زلزال ألم وندم).

(عاد نضال وأخبرهم عن مكان السلاح، أما أخواه فقد سعدا جداً لعودته سالمًا بعد كل السنين القاسية وطبعًا كان للحزن على فقدان الأهل نصيبه: الحاجة يمينة، رياض، الخال غانم وابنه علي... وغيرهم ثم تأتي مارلين).

الشيخ لحسن: «هذه إذاً من عالجت جرح المنفق وهي ابنة تلك المقدامة».

نضال: «أجل يا شيخنا مارلين دوكار الطيبية، مارلين هؤلاء هم سادة الجهاد هنا: شيخنا لحسن، المسيح، المنفق، حمزة ومحمد». مارلين: «أنا محظوظة فعلا لأنني أقف أمام شامخين مثلكم أشكركم».

(تأتي ريهام مسرعة وتدخل عليهم).

ريهام: «السلام عليكم، هناك خبر سيء القوات كشفت المغارة وستهاجمكم في أي لحظة». (وتغادر سريعاً).

نضال (شاكأ بها): «هلا أخبرتmani عن ريهام؛ هل لا زالت تطيل البقاء بالمدينة؟». (فأخبروه بعملها بالمدينة).

المنفق: «شيخنا لدي اقتراح لما لا نهاجم بالقذائف عدة مقرات؛ لنرعبهم فيتنازلون عن مخططهم». (وشرح لهم الخطة جيداً).

الشيخ لحسن: «حسنا على بركة الله لننتقل محررين». (الله أكبر)

(سار معهم نضال وهو يشك في الأمر غير مقتنع، أما مارلين فبقيت في المغارة، لما وصلوا باشروا التنفيذ وأصابوا عدة مراكز للأعداء حتى سقطت إحدى القذائف قريباً من مقر كوريلا الذي كان هناك بعد حضوره من المجلس الأخير).

كوريلا: «سحقاً لذلك الجنرال لو كان لدي طمع في السلطة لأبدته في أول يوم لي».

(فجأة موجة عنيفة يصطدم بسببها بالحائط فأسرع الجنود إليه ليطمئنوا عليه فنهض غاضبًا).

-هوجم من الجهة الشرقية ٢١ مركزًا من أصل ٣٠ وألحقت أضرارًا معتبرة بها المنطقة الشرقية - ستكون هناك إثارة كافية لتزيح عني الملل!

(إلى المجاهدين بعد انطلاقهم من طريق آخر).

محمد: «أستطيع أن أرى غمامتنا تزلزلهم والرعب يرقصهم».

الشيخ لحسن: «سنتصر ياذن الله».

(نضال لا يزال صامتًا ثم توقفوا عن الإطلاق، ثم جاءهم ساع من القرية يطلب النجدة).

نضال: ماذا تقول (يتذكر ما فكر فيه وحلله) سحقًا هكذا فعلوها!.

(فأسرعوا لكن باغتهم جنود آخرون في الطريق وقامت معركة هائلة أما في القرية أخرج كل السكان من بيوتهم وأجبروا على قطع أشجارهم بأيديهم).

الرجل: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ لن أقطعها حتى وإن كلفتموني حياتي ثمنًا لها، أبدًا لن أفعل، فاليد التي زرعته لن تقطعها مطلقًا.

(فيقتلونه، أما آخر ففعل الأمر مكرهاً وهو يبكي بعد أن خيروه بينها وبين حياة امرأة).

كوربيلا (منزعجًا): «هؤلاء بائسون فعلاً».

(ويضرمون النار في القرية بأهلها فيسمعون فجأة زغرودة طويلة من أريام).

(ويستشهد الأبطال كلهم؛ الشيخ لحسن قتله كورييلا، أما نضال فقد جرح فعاد للمغارة بعد نهاية المعركة).

مارلين: «لماذا عدت وحيداً؟».

نضال مقهوراً متأثراً: «لأنهم سلموا روحهم لبارئهم..».

مارلين متأثرة: «سلمهم الله أرجو لهم الرحمة».

(عالجت جراحه، ثم بعدها تفتن لخطة كورييلا حيث عثر على لغم أراد تفجير الجبل به، ولحسن الحظ نجيا وهربا قبل انفجاره).

نضال: «إن حزني على هذا الجبل لأشد من حزني على فقد أخوي وأختي؛ لقد حمل هذا الجبل رماح ألم وأمل، واحتضن كل عرقنا الجزائري هنا وما هو الآن يلتهب...!».

(في السجن حيث أريام عذبت بشدة لكي تعلمهم بمخبا المجاهدين في منطقة مجاورة لهم لكن عبثاً!).

جندي: «تلقيت كفايتك فلما لا تبوحين بما عندك؟».

أريام بأنين: «أنت تحلم، فهذا من عاشر المستحيلات أن أشي

بهم».

(يأتي كورييلا).

أشير: «أزف لك خبراً يعجبك، لقد أبيد الكل، ومع هذا لا أظن أن الأسطورة مات، ومارلين ما دامت معه فستكون لها ٧ أرواح!».

الجندي: «كدت أقضي عليه يا سيدي في المعركة».

(يقاطعه غاضباً ويقتله).

أشير: «الأسطورة يُقتل على يد واحد مثله؟ (تفزع أريام ويلتفت إليها فيزيد فزعها) إعدرينا فلم نرحب بك كما يجب يا أريام..».

أريام: «أنت وحش بلا رحمة بل قلبك من صخر! (يزيد فزعها) حسناً ماذا تريد؟».

أشير: «ماذا أريد برأيك يا أخت نضال؟».
(تندهش).

أشير: «بالتأكيد، نضال خريج الجامعة العربية العسكرية «أم الفوارس» بدرجة ممتاز الأسطورة الجهادية، أما أنا فأشير كوريلا خريج «ليا حاد»، وأيضاً نفس السابقة، ولكن بحيلتي أنا، والآن هلا أهديتنا معلومات؟».

أريام: «الموت أهون علي ألف مرة من أن أبيع وطني».
أشير: «أنتم بؤساء بحق».

(فتغضب فتصفعه فيلتفت لها مستغرباً ضاحكاً).
أشير: «جواب كافٍ شافٍ حسناً إليك ردي».

(ويوجه لها ضربة للبطن فتفقد وعيها ثم يأمر بقتلها، فيقتلها فعلاً، ويصل الخبر إلى نضال).

نضال: «كانت حية وأنا لا أدري؟ وشوقي لها لا يحصى! كانت بمثابة أم ثانية لي. رحمك الله يا أريام رحمك يا شهيدة..».
(أما بمكان آخر).

ريهام: «معذرة يا سيدي هل نفتالي هنا لأكلمه؟».

أشير: «إذا أردت، زوريه في المقبرة بالمجان» (فتفزع).

ريهام: «على ما يبدو أنك القائد الجديد، أعتذر!».

أشير: ياللسخرية! جاسوسة هذه المنطقة أخت عائلة قتلت آخر أفرادها قبل لحظات (فتفزع أيضاً).

ريهام: هذا لا يهمني، جئت كي أخبرك بأن المنخبأ هو في أحراش غابة الجبل الأخضر». أشير: انتظري، أنا لا أثق بالعرب أبدًا مهما أبدوا من إخلاص!«.

ريهام: «اطلب مني ما شئت؛ لأبرهن لكم بأني وفية مخلصه!».
أشير: «دعيني أفكر، لم لا تجدين لي نضال أخاك وتقضين عليه؟ عفواً أقصد جديده وحسب فقتله أكبر منك!».«.

(فتذهب وهي عازمة على قتله وفي مساء ذلك اليوم راقبت الشوارع إلى أن وجدته فراقبته ثم هاجمته بغتة، ولحسن الحظ كان سريعاً، وقام عراك بينهما لم يعرفها؛ لأنها كانت ملثمة، ولما أرادت طعنه دافع عن نفسه فأرداها قتيلة، وعندها اكتشف أنها أخته فتلون وجهه!)«.

مارلين: «أليست هذه ريهام أختك؟».

نضال: «كانت ضرراً وخطرًا على الوطن؛ موتها أفضل».

(وعندها يظهر كورييلا وهو سعيد فتجهز نضال).

أشير: «وأخيراً» (فلا تتمالك مارلين نفسها وتذهب إليه غاضبة).

مارلين: «يا قاتل أمي يا وحش سأنتقم منك» (فيمسكها ويريد

قتلها).

نضال: «أشير دعها فالمعركة بيننا فلا تبدأها بقتلها!» (فتغادر...).

كان هذا اليوم هو التاسع من ذي الحجة أي أن المجاهدين أُستشهدوا وهم صائمون، يوم عيد الأضحى كان حزينا بسبب ما حل بالمغارية فقالت السياسية رفل التي سبق لها وأن ساعدت المقاومين:

«السلام عليكم يا أهل الوطن الجريح الدامي، ها نحن نلتقي اليوم، وبالأمس حدث ما حدث، أيبد المغارية والجبل وكل تلك الثروة الزيتونية الغالية...! أن لنا أن نطبق (ما يُسلب بالقوة لا يُعاد إلا بها) هكذا كان شعار أولئك الأبطال، لنزمر ولنعد ثواراً أبطالاً ولنا إحدى الحسينين، وذكر هؤلاء الأمجاد باق: المنفق وعائلته، المسيح وأخوه رياض، حمزة، محمد، أريام ووالدتهم وأبوهم وأسطورتنا نضال وغيرهم كثير.

أما في خطاب آخر قاله المحامي ستانلي وايلر محامي ماريان وهو غاضب ومعادٍ لكوريبلا: «بَررنا بأن الدين يجمعنا فكذبنا، بررنا بالكثير لكن. ما يربطنا هو التعايش كرابط صلب لا يتمزق، آل يعقوب وإن لم يكن لنا وطن فلنا أصول ولنا كبرياء، ولا نرضى بهذا العار والمسخ، قوموا وعبروا عن رفضكم وغضبكم أنا يهودي لكني إنسان ولست بهمججي!».

(مارلين لم تعرف أين تذهب وماذا تفعل؟ هي قلقة على نضال حيث إنه لم يُعد بعد. كانت في فندق فجاءها ستانلي وايلر برسالة وقرأتها).

وايلر: هذه كانت وصية والدتك التي أعطتني إياها قبل مقتلها، وتشدد على أن تطبيقها حرفياً فكري جيداً قبل اتخاذ القرار».

مارلين: «هكذا إذاً تطلب مني مساعدة المجاهدين، ثم بعدها العودة للوطن، لأنني سأكون عبئاً ثقیلاً على نضال فهو صقر، ومرافقتي له تعيقه؛ هي لا تريدني أن أسمح لكوريبلا لجعلي مثله. عليّ العودة والقيام بما هو صحيح... سأعود إذا لم أنقذ هنا فسأنقذ هناك بلا شك.

لن أجعل آخر رغباتها لا ينفذ (تستدير بجدية كبيرة وأمل) سيدي إن وجدت نضال بلغه تحياتي وشكري».

(وفي الغد استقلت الطائرة مغادرة فلسطين فقالت بفخر):

«نضال أنت مايسترو لكفاح أبدي... شكرًا».

بعد أن عادت لم تدخر جهدًا ووصلت الليل بالنهار كي لا ترى مريضًا إلا ويُعالج واعتنقت الإسلام أيضًا. أما نضال فاختفى بعد النزال، إنه لم يمت بل كافح وكأنه شبح إلى ميقات لم يعلمه أحد.



المكينة

بقلم
مريم مَحْرِيز





تتسول دومًا على قارعة الطريق وفي البيوت.. تأكل من الزبالة
ومن بقايا الأطعمة.. وتعيش على بعض ما يمنحها إياه أصحاب القلوب
الرحيمة.. من منا لا يعرف القحط؟ تلك المخلوقات التعيسة التي تُعاني
البرد والجوع والعطش.. تلك التي يختلط زفير الرياح بموائها.. وهدير
الأمطار بأناتها.

جلست جميلة تفكر من زجاج نافذتها في القصة التي سمعتها ليلة
أمس من جدها حول بيت مهجور قرب بيتهم.. حكى لها أنه قد رُويت
حول ذلك البيت قصص عديدة.. كثيرة منها لا يمكن اعتبارها أكثر من
خرافات.. والبعض منها مبنيٌّ على عدة حقائق ومشاهدات عينية..
روى لها جدها أن ذلك البيت كان يومًا مليئًا بالفرح والضحكات.. وإنه
كان عبقًا برائحة الفل والياسمين التي تصل من حديقته ومن السهل
الفسيح الممتد حوله.. وأخبرها بأن القاع الصفصاف أمام ذلك البيت
كان يومًا ذلك السهل.. وأن الأشواك حوله كانت ذات مرة أشجار فل
وياسمين وزعتر.

كانت عائلة السيد أحمد تسكن ذلك البيت وكانت في الليالي
العجفاء تنعم بالدفء إلى جانب الموقد.. وذات ليلة ممطرة، سمع
صغير العائلة سامي صوتًا غريبًا آتيًا من الحديقة.. كان وقتها في سريره

مستيقظًا بعد أن جافاه النوم وكان قد مر قرابة الساعة ونصف الساعة منذ أن غطته أمه بالبطانية وتمنت له أحلامًا سعيدة.. جافى النوم مقلتي سامي ولكن الأحلام استنكرت على النوم صنيعه فكانت تدور بصغيرنا في عالم الآمال، وتصور له صورًا جميلة أخاذة لم يكن ليقطعها لولا ذلك الصوت الغريب.. اقترب سامي من النافذة وأجال بصره في حديقة البيت لكنه لم يلاحظ شيئًا غريبًا.. عاد إلى سريره وتدثر ببطانيته وحاول العودة إلى النوم.. لكن الصوت ما فتى أن عاد من جديد وكان هذه المرة أكثر وضوحًا.. قام سامي ثانية وتوجه إلى حيث تقبع النافذة.. كان الصوت جليًا هذه المرة.. نظر صغيرنا إلى أسفل النافذة فإذا به يرى كومة غريبة من الشعر الأبيض.. ولم يكن سامي من قبل قد رأى قطًا.. ببساطة لأن أبعد مكان كانت رجلاه قد وطئته هو حديقة بيتهم التي لم يحدث أن دخلها حيوان إذا استثنينا الحشرات من نحل وفراش كان صاحبنا يحب أن يقضي الوقت في تأمل حركاتها.. مديديه من النافذة وتحسس الجسم الغريب المكور أسفل نافذته.. وإذا برأس القط يستبين من كومة الشعر ناظرًا إلى سامي بعينين فاحصتين.. فزع صغيرنا إلى أبيه وأخبره عما كان من أمر كومة الشعر، فتوجه معه أبوه إلى الحديقة وأدخلوا المخلوق الصغير الغريب.. وسمع سامي لأول مرة بكلمة قط.. وكانت أول مرة له يرى حيوانًا في حجمه فكان من الطبيعي أن يُعجب به بل ويود مصادقته.. وهكذا قررت العائلة تحت إلحاح الطفل الصغير وتحت وطأة مشاعر الحنان تجاه القط أن تُبقيه عندها ليصبح رفيق الفتى الصغير.

كان القط ينمو بسرعة وفي كل يوم يزداد حب سامي له، وكذا تعلق العائلة بذلك الذي أصبح فردًا جديدًا منها فكانت الأم لا تبخل

عليه بلحم أو سمك، وكان الأب يشتري كُرَات الصوت الملونة له ليلعب بها، وأما الصغيرة فاتن فكانت تحيك له ملابس جميلة من الصوف حتى يستمتع بالدفء في أيام البرد.. لكن ما رفضته الأم والأب رفضًا قاطعًا هو أن يبني معهم في البيت بسبب خوفهم من الأمراض التي يمكن أن ينقلها نظرًا لكونه غير ملقح، وبسبب أن الأب كان يكره أن يتناثر وبر القط في كامل أرجاء البيت فيلصق بجواربه أو حذائه.. وما عدا ذلك فقد كان القط مبعجلاً مكرماً.. لكن الذي كان يعتمر بقلب القط - الذي سموه نوعام - لم يكن حتى سامي الصغير ليتصوره.

لم يكن نوعام مقطوعاً من شجرة كما كانت عائلة السيد أحمد تظن.. بل إنه كان شديد التعلق بأمه القطة نوعاه التي أنجبته، ثم إنه لم يكن قد دلف إلى الحديقة من محض الصدفة.. بل كانت تلك نصيحة قدمتها له أمه نوعاه وهي تعلمه أصول التسول وطرق الحصول على الرزق السهل السريع، وكانت تملك من الأبناء غيره ثلاثة قطط آخرين وهم عتارا وخارنا وادنا الذين كانوا يمتنون نفس عمل نوعام أي التسول من أجل الرزق.. وكان أب هؤلاء القطط الأربعة قد توفي بعد إنجاب أمهم لهم بحادث سير أودى بحياته أمام عيني نوعاه، فريت أولادها على فن الحياة من منظورها، وحرصت على أن تزرع فيهم بذرة الكره والحقده تجاه من يسمون أنفسهم بالبشر، وكان نوعام ذا شخصية مستبدة وأنانية مفرطة عُرف بها بين أقرنائهم من القطط، إلا أنه لم يكن يملك من الكبرياء ذرة فكان لا يرى حرجاً في التزلف والكذب ليحصل على مبتغاه، وكان يذهب أبعد من ذلك فكان لا يعترف بفضل أحد عليه، ولا يمانع من أن يعض يد من أطعمه إذا كان قد وجد أنه لم يعد ذا فائدة تذكر له.

أما عتارا فقد عرف بتوقه إلى الكسل وحب التملك، ولذا فما أن وجد عائلة ترعاه حتى مكث معها يعيش عيشة الملوك في القصور لكن حظه لم يكن مختلفاً عن حظ أخيه؛ إذ لم يكن قد حظي بعائلة تقبل بعيشه معهم داخل البيت فكان كل ليلة يعود أدراجه إلى وكر أمه لينام إلى جانبها وجانب إخوته كيفما اتفق وأينما اتفق.

على خلاف عتارا كانت خارناً لا تحب الاعتماد على التسول في المنازل بل تكتفي بما يحضره عتارا إليها من أصحاب المنزل الذي يقطنه، بينما كانت هي تقوم بحبك الخطط لباقي إخوانها حتى يتمكنوا من التأثير في أناس مختلفين بطرق مختلفة، وكانت في خطتها تعتمد على ما تحضره لها أختها إدنا من معلومات حول مختلف المنازل المحيطة، ومختلف الناس الذين يقطنونها إضافة إلى أسماء وأصول باقي القطط بتلك المدينة، وكيف يمكن التأثير فيهم، ولا يخفى طبعاً على أحد أن صاحبتنا خارنا قد ورثت موهبة التخطيط الاستراتيجي من أمها نوعاه التي حرصت على تعليمها مختلف الخطط الخبيثة التي تعلمتها منذ صغرها من أبويها وزوجها.

وأما القطة نوعاه أم عصابة نوعام فقد كانت تمكث إلى جانب ابنتها خارنا في البيت لحبك الخطط، لكن ذلك لم يكن عملها الوحيد إذ كانت إلى جانب ذلك تلتقي بين الحين والآخر بجملة من رفقاءها القدامى وتقضي معهم الساعات الطوال في حديث لم يكن قط ليفهم كنهه، وحدها خارنا كانت تعلم علم اليقين ما تدبره أمها؛ كيف لا وقد تعلمت على أيديها فن التخطيط الاستراتيجي.

فيما يخص رابع الإخوة إدنا فقد كانت صاحبتنا هذه تعتمد من أجل إنجاز مهمتها والحصول على قوتها على جمالها الأخاذ؛ لتفري

القطط ولتكون معهم صداقات مختلفة تعتمد عليها لتحصل على المعلومات المطلوبة، فكانت أعرف القطط بتلك المنطقة واشتهرت بعلاقتها المتعددة ومعلوماتها الغزيرة عن الجميع.

وبالمختصر فقد كان الإخوة الأربعة يكونون فريق عمل هدفه الظاهر الحصول على رزق وقوت اليوم؛ بينما كان هدفهم الحقيقي يتبلور مع الأيام ليصبح أكثر وضوحاً في أعينهم، ومع اشتداد عودهم يوماً بعد يوم كانت شراستهم بالمثل تزداد وحقدهم على عالم البشر يتضخم. أما صديقتنا الصغيرة سامي فلم يكن يعلم عن مخططات نوعام قطه الصغير شيئاً.. بل إن أحداً من عائلة السيد أحمد لم يكن ليتصور من جماعة من القطط أن يحملوا في قلوبهم كل تلك الضغينة والأحقاد، وهم الذين كانوا يحسنون دوماً لنوعام بشكل خاص ولكل القطط بشكل عام.

ستان.. ستان منذ أن أصبح نوعام فرداً من أفراد عائلة السيد أحمد.. ستان قضاهاما سامي في تربيته والإحسان إليه وكان ينتظر فرصة ملائمة ليُقنع أباه فيها بقبول إدخال القط إلى المنزل.. ثم إن العائلة لم تكتف بنوعام كحيوان أليف بل إنها ربت إلى جانبه كلباً أسموه «برين» وكان سامي يحبه كما يحب نوعام.. وحده أب العائلة لم يستسغ فكرة تربية كلب وقط لخوفه من شجارهما الدائم... لكن توقعاته لم تكن في محلها؛ نظرًا إلى أن برين كان صديقاً حميماً لنوعام وإن لم يبد عليهما ذلك.

كانت نهاية تلك الستين مشهودة، بقي كل قط في المدينة يذكرها وكل شخص من أهلها يتحسر على الماضي من قبلها.. كان

ذلك في عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، عندما قرر نوعام البدء بتنفيذ الخطة التي قد ضبطها مع أخته خارنا وأمه نوعاه.. انطلق الإخوة الأربعة في المدينة يوزعون إعلاناتاً على باقي القطط في جميع الأمصار والأصقاع.. إعلان شفاهي غير مكتوب بحبر قلم، ولكنه مطبوع بدم الحقد والضعينة على قلوب ذلك الشعب المكلوم.. وكان الإعلان، يطالب باجتماع كل القطط في أحد المقرات؛ ليناقشوا مصير شعبهم، والخطط التي عليهم أن يتبعوها وينقذوها.

ولعلك يا بُنيتي تتساءلين عن هذا المقر.. فمن أين لجماعة من القطط المشردة أن يمتلكوا مقرًا يمكن لهم أن يجتمعوا فيه؟ بل إن هذه القطط لو امتلكت هكذا مكانًا تجتمع فيه وتنام فيه لما حصل وأضمرت في نفسها ما أضمرت، ولا أقدمت على ما فعلت.. فهل تشرُّدُهم ذنب البشر كما يُشاع بين كل القطط في جميع أصقاع العالم؟

تنهد جد جميلة هُنَيْهَة، والتفت إلى حفيدته وهو يلحظ حماسها إلى القادم من الأحداث.. كان الجد يعرف ببداهة أن عقلها الصغير كان معبئًا بالأسئلة. ماذا حدث في ذلك الاجتماع الغريب؟ وإلى ما أدى؟ هل علم به سامي؟ ولمَ أقيم من أصله؟ وما بال نوعام يحمل الأضغان وقد كُتِبَ له عمر جميل إلى جانب صديق وفيّ كسامي؟ وكيف انتهى الأمر ببيت العم أحمد إلى أن يصبح مهجورًا؟ ببساطة ماذا حدث؟ لكنَّ الجد أبى أن يُجيب حفيدته على تلك الأسئلة في تلك اللحظة، فقد ارتأى أنه من الأولى أن يُحدثها عن تاريخ القطط أولاً.. قال لها بنفس الصوت الحنون:

عليك أولاً يا صغيرتي أن تعي أنه لا يمكن لأحد الحكم على موقف ما لم يدرسه من جميع جوانبه، والتاريخ يا بنية جزء لا يتجزأ من

الحقيقة، فإن كنت تتساءلين عن الدافع الذي كان يملأ نوعام وغيره من القطط لفعل ما فعلوا، فينبغي عليك أن تعلمي تاريخ هذه الحيوانات مع الإنسان أولاً. ففي هذه المدينة يا بنية اعتادت القطط على أن تعيش في بيوت الناس آمنة، كان هناك على الأقل قط أو اثنان في كل بيت، وكان الجميع معتادين عليهم؛ لكن المشكل كان تصرفاتهم غير المسؤولة، فهم إن أرادوا شيئاً من الأكل حتى فوق الشبع سرقوه، وإن كان أصحاب البيت الذي يقطنونه قد أفلسوا أو كانوا يعانون ضائقة مالية فإنهم كانوا لا يتوانون عن تركهم؛ معبرين بذلك عن قلة وفائهم، وعلى الرغم من أن الناس كانوا يضيقون ذرعاً بتصرفاتهم إلا أنهم لم يخطر لهم مرة رميهم في الشوارع؛ بل كانوا ألطف من أن يفعلوا ذلك بمخلوقات ضعيفة مثلهم.

وجاء التاسع من نوفمبر من عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف عندما دخلت المدينة مجموعة من الكلاب السائبة؛ التي كانت تنتقل بحثاً عن رزقها وقوتها، ففي ذلك الوقت يا بنية لم يكن هناك جمعيات تُعنى بالحيوانات، ولم تُعنَ الحكومات بتنظيم شيء من أمورهم؛ فكانوا كعجور تحركهم الرغبة في الجوع، فيسافرون مثل العجور بحثاً عن موطن رزق، والكلاب كما هو معروف هي من ألد أعداء القطط، فكانت الهررة تفر خوفاً منها، وكانت الكلاب تستحوذ على كل المناطق التي تصل إليها، فتطرد القطط شر طردة، وتفعل بها الأفاعيل، في ذلك اليوم الذي أقبلت فيه جماعة الكلاب على المدينة حدثت معركة ضخمة بينها وبين القطط حتى أن الناس أغلقوا نوافذ بيوتهم وأصدوا أبوابها خوفاً من عدوان هذه الحيوانات، وبسبب ذلك وقعت القطط في مشكلة ضخمة؛ فكل قط كان لا يزال خارج حدود البيت

الذي يأويه تم سحقه وقتله على يد الكلاب الشرسة، البعض فقط نجا بأن غادر المدينة مهاجرًا إلى أبعد مكان ممكن، والباقون كانوا من أولئك الذين لزموا بيوتهم.. الجدير بالذكر هو أن الغالبية العظمى من القطط كانت قد دلفت إلى منازلها قبل أن يحدث ذلك العدوان، وبالتالي فإن الذين قتلوا في تلك المعركة لم يكونوا أكثر من شردمة قليلة، لكن الأفواه طبعًا تُضخم الأحداث عند نقلها حتى بات الأمر كما لو أن شعبًا كاملاً من القطط قد أُبِيد على أيدي أولئك الكلاب.. لم تكن العلاقة بين الكلاب والقطط علاقة مودة قطعًا، لكن الكلاب لم تكن كلها معادية للقطط، فكان البعض منها يؤمن لها طريق العبور حتى لا تقع في قبضة الشرسين منهم، وهؤلاء هم نفس أصحابنا من أولئك الذين كانوا في عون نوعهم وإخوته لتأمين مكان يلتقون فيه بباقي القطط، فظاهر العلاقة بين هذين الصنفين من الحيوانات أنهم كانوا على عداء دائم، أما واقع المعاملات فيفرض على الواحد أن يتعجب ويتساءل عن ماهية هذه العلاقة الغريبة التي يسودها كثير من الغموض.

ثم إنه وبعد توزيع المنشورات على كل قطط المدينة تم تنظيم اجتماع ضخم بذات الليلة، لكن الحضور لم يكونوا فقط من الهرة بل حضره أيضًا عدة كلاب من كلاب المدينة المعروفين؛ الذين يُمثلون آراء بقية الكلاب، وانطلق ذاك الاجتماع الغريب الذي كان يجري في كواليس العتمة بعيدًا عن أنظار السكان:

«يا شعب القطط العظيم. لقد حانت اللحظة التي انتظرها آباؤنا منذ سنين.. حان اليوم الذي نتقم فيه لمظالمنا ولإخواننا.. كل واحد فينا فقدَ أبًا أو أمًا بسبب إهمال أولئك الذين يدعون أنفسهم بشرًا..

كل واحد فينا فقدَ حبيبًا في تلك المعركة المؤسفة منذ سنوات، والتي أغلقوا فيها أبوابهم في وجوه آبائنا؛ لذا فقد حان الوقت لأن نغلق نحن أيضًا أبوابنا في وجوههم ونُشرد أهلهم كما شردوا أهالينا.. حان الوقت الذي نتقم فيه لخيباتنا.. إنه الموعد المنتظر الذي يكون لنا فيه حق امتلاك موطن وبيت يُؤويننا.. أيتها القبط لتتحد، ولنقرر بدأ خططنا التي حلمنا بها من سنين خلت..».

كان ذلك خطاب نوعام أمام عشرات القبط التي كانت تتوق بحماس لذلك اليوم الموعود، ثم ترك نوعام المكان لواحد من الكلاب الحاضرة والذي كان يقطن بيتًا بعيدًا كل البعد عن بيت السيد أحمد ويُدعى «بيل».. توجه بيل إلى الجمع بصوت متهدج قائلاً:

«ليس لدي أكثر من بضع كلمات.. باسم كل كلاب المدينة أعلن أننا متعاطفون مع قضيتكم ومع مشاكلكم، فإن كل جمع له الحق في وطن وأرض، وكما نملك نحن معشر الكلاب أماكن من هذا النوع تؤويننا، ونملك إلى ذلك عدة بيوت سيطرنا عليها في هذه المدينة منذ القدم، فإن لشعب القبط المائل أمامي الحق أيضًا في هذا الأمان، لذا فإننا نحن الكلاب سنكون في عونكم، ونمد لكم يد المساعدة حتى تمتلكوا أسباب النصر على أعدائكم وتترعوا حقوقكم».

نظرت جميلة باستفسار إلى جدها وسألته:

«ولكن يا أبي عن أي حق يتحدثون؟ هل يعني بيل أنه سيتنازل عن بعض الأماكن المخصصة للكلاب لصالح القبط؟ ومن متى أصبحت الكلاب صديقة للقبط؟ أليست هي من تسببت بقتل كثير منهم في تلك المعركة؟ فكيف يتحالفون الآن معهم؟».

أجابها جدها بصوت متقطع يملؤه الحزن:

«أي بنية.. في هذا العالم البقاء للأقوى.. أي بنية، في هذا العالم المصالح تحكم.. أي بنيتي، إن الذي لا يعترف بفضل من ساعده وأحسن إليه لا يمكن له إلا أن يتبع مصالحه، وكذا هو نوعام وباقي عشيرته.. ليس هدفهم الانتقام في حد ذاته، فلو صح ذلك لرأيتمهم أشد عداوة وبغضًا للكلاب، لكن ذلك ليس هدفهم بقدر ما كان حلمهم إقامة مكان خاص بهم ولو على حساب الأبرياء وحقوق المساكين.. نوعام قط شرس، شرب الضغينة من ضرع أمه وتربى على الحقد على صغر سنه.. لذا ما دامت الكلاب وعلى رأسهم بيل سيساعدونهم فلا صير في القبول بمساعدتهم، ولليل وعشيرته يا بنيتي أهدافهم أيضًا.. فكل واحد فيهم يسعى وراء تحقيق مطامعه.. فأما الكلاب فلم يكن البتة من صالحهم أن تنافسهم القطط على الأماكن التي استولوا بالفعل عليها.. ناهيك عن أن واقع وجود تهديد على البشر من طرف القطط يستلزم أن يربي الناس مزيدًا من الكلاب، بل إنهم قد يتخلون عن تربية القطط ويتخذون عوضًا عنها الكلب رقيقًا وحيوانًا أليفًا.. وبذلك يكون مخطط القطط قد خدم مصالحهم هم أيضًا».

استطرد الجد بعد هنيهة:

«بعد خطاب نوعام وبيل وعدة خطابات تَلَّتُهُمْ ناقشت القطط الخطة التي كان خارنا ونوعاه قد وضعناها بالاعتماد على المعلومات التي جمعتها إدنا.. واقع الأمر كان أن الخطة كانت على قيد التنفيذ بالفعل، فما حصل هو أن إدنا لم تكن تسعى عبثًا إلى تكوين علاقات وصدقات وثيقة مع مختلف قطط المدينة، بل إنها كانت بذلك توجه

مختلف القطط التي لم تجد بعد من يرهاها إلى المنازل التي لم تتخذ بعد قطعاً إلى أن تأكدت إلى أنها قد زرعت بكل منزل سرطانياً وبكل بيت جاسوساً.. وبفضل ذلك فقد كان جمع المعلومات عن قاطني تلك البيوت أمراً سهلاً عليها، معلومات جعلتها تعرف كيف يمكن التأثير عليهم من نوعية الخرافات التي تثير فيهم الرعب والخوف إلى أكثر ما يمكنه تفريق وتشمل الأسرة الواحدة.

تفرق الجمع في تلك الليلة المشهودة بعد أن تم تحديد كبرى الأهداف، وكانت أول نقطة في تلك الأهداف البدء بإخراج إحدى الأسر من بيوتها حتى يكون ذلك البيت المقر الأول والبداية الأولى للانطلاق في هدفهم الأكبر من أجل إخضاع كل المدينة تحت سيطرتهم.

وبدأ نوعام في تنفيذ الخطة المتفق عليها بعد أن وقع الاختيار في الاجتماع على بيت السيد أحمد كانطلاقة لحلم شعب القطط. بدأ صاحبنا باختلاق المشاكل مع الكلب برين، فكان بين الفينة والأخرى يسرق من طعامه أو يجبر سامي على إبعاده عندما يكون معه، وشيئاً فشيئاً بدأ برين يظهر ضيقه وانزعاجه من تصرفات نوعام، فكانا يتشاجران على الدوام، وكان هدف نوعام الأساسي إجبار برين على الخروج من البيت ليكون مقرّاً له ولجماعته بامتياز فكان له ما أراد، ففي صبيحة الرابع عشر من شهر ماي من عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف كان نوعام قد جمع كل القطط المشردة التي لم تلق بعد من يعتنى بها ويربها في المكان الموعود، ودلفوا خلسة إلى بيت السيد أحمد.

كانت الأم يومها قد حضرت فطوراً من السمك المشوي، وكان الأب في قمة الإرهاق بحيث لم يكن متنبهاً على ما يجري من أحداث

في المنزل، أما فائن الصغيرة فكانت تلعب بدمية لها وتحيط في الوقت ذاته شبه قميص قررت أن تجعل نوعام الصغير يلبسه نظرًا إلى أن الجو كان لا يزال باردًا في الليل، دلف سامي إلى المطبخ بدون أن تلاحظ أمه، وسرق من الصحن أكبر سمكة من السمكات المشويات وخبأها تحت ملبسه لألا يراه أحد وهو يخرج بها، توجه الصغير إلى نافذة حجرته حيث كان قد التقى وجهًا لوجه مع نوعام لأول مرة، وكان أسفل نافذته عبارة عن مكن سري يجتمع فيه سامي بقطه كل يوم ليعطيه بعضًا من الطعام الذي لم تكن الأم لتجد ما يكفي العائلة منه، ناهيك عن إعطاء الحيوانات نصيبًا، فكان صاحبنا يسرق ما أمكن له سرقته أملًا ألا تنتبه أمه إلى أفعاله حتى يطعم قطه الصغير المحبوب، وكم فاجأته أمه أكثر من مرة وأنبته على فعله قائلة بأنها تطعم القط ما يكفيه ويكفي عشرة من أمثاله، وأنه ليس عليه أن يقوم بهذا الفعل المشين في حق طعام الأسرة، لكن قلب سامي الحنون لم يطع أمه يومًا إذ كان يرى أن أمه لا تقدم للقط إلا البقايا بينما كان يؤثره هو بأجود ما تأكل العائلة، فكان دائم العصيان لها.. توجه صاحبنا إلى النافذة والسمكة بيده ونادى نوعام للأكل، ولكن ما فوجئ به صغيرنا أن نوعام لم يكن يومها وحيدًا بل إنه كان برفقة أربعة قطط آخرين.. فكر سامي بأن تلك القطط أيضًا كانت تعاني الجوع فقسم السمكة على خمس قطع ووضعها على مقربة من النافذة. فأما نوعام فقد كانت تلك أسنح فرصة له للبدء بخطته، وأما القطط الأربعة فلم يكونوا غير إخوته وأمهم وقد دخلوا معه الحديقة ليدرسوا الوضع عن كثب، وأما سامي الصغير البريء فقد عاد أدراجه إلى المطبخ ليحضر مزيدًا من الطعام مقتنعًا ببراءته أنهم أصدقاء نوعام وبالتالي ضيوفه وإكرام الضيف واجب.

لم يهتم نوعام بالسمة المقطعة أسفل النافذة وقفز إلى داخل حجرة صاحبنا الصغير واختبأ تحت لحاف سريره، أما أدنا فذهبت تستدعي كل معارفها من القلط ليأتوا إلى حيث بيت السيد أحمد، وأما خارنا فقد توجهت إلى حيث تقبع غرفة فاتن الصغيرة وبقيت تراقبها من نافذة غرفتها الصغيرة المفتوحة، وأما نوعاه فقد بقيت تراقب الأم وسمكاتها من حيث يمكنها الدخول إلى المطبخ بسهولة، وأما عتارا فقد أخذ يراقب الأب المنهك النائم بغرفة نومه من حيث لا يراه.

ما أن عاد سامي ببعض ما استطاع حمله من المطبخ دون انتباه أمه حتى أخذ في البحث عن القلط الخمسة، أخذ الصغير يبحث ويبحث طويلاً دون أن يعثر بعينه على أثر لهم فاستغرب الأمر وهم بالخروج من الغرفة؛ في تلك اللحظة سُمع صوت حاد تعالي بالحديقة كاد أن يصم أذان قاطني البيت هم منه السيد أحمد فزعاً متسائلاً عن مصدره، وإذا بالدنيا تظلم في عينيه فجأة حيث قفز عتارا من نافذة حجرة النوم ليرسو ببطنه المكور على وجه السيد أحمد الذي لم يفهم ما حل.

أما الأم فراعها في نفس اللحظة التي سمعت فيها ذاك الصوت أن ترى أطباقاً تكسر في المطبخ دون أن يسقطها أحد، وكانت نوعاه تجري كالمجنونة في وسط المطبخ فتلقي كل ما يعترض طريقها أرضاً فتسببت في ضجة كبيرة.

فاتن الصغيرة كانت تحيك القميص وتداعب دميتها في اللحظة التي سمعت فيها ذلك الصوت الغريب تلاه صوت مواء غريب من حيث نافذتها، أما صاحبنا سامي فقد كان يهم بالخروج من الغرفة عندما رأى لحاف سريره يتحرك وحده ويرتفع شيئاً فشيئاً كما لو أن مساً من الجن قد أصابه.

لم تكن هذه الأفعال مبنية على فراغ، فقد كانت نوعام طوال فترة إقامته مع عائلة السيد أحمد يجمع المعلومات المختلفة حول أفراد الأسرة، فكان يعلم أن لا شيء يمكن أن يزعم السيد أحمد أكثر من تواجد حيوان ما في غرفة نومه، والإحساس بوبر قط على جسده فكان قفز عتارا على وجه صاحبنا محسوبًا وذا هدف واضح، أما الأم فإن إفزاعها وإخراجها عن طورها كان أسهل ما يكون على نوعاه فعلى نظام المطبخ وجودة الأكل كان فلك حياة الأم يدور؛ لذا فإن بعثرة الأشياء وكسر الصحون كانت أكثر من كافية لإفقادها صوابها، أما فاتن فإنها على حبها لبرين ونوعام كانت تخاف الأصوات التي كانت تخرج من أفواههم، فكانت ترتعب لمواء نوعام ولنباح برين ولذلك كان مواء خارنا، ولم يبق غير صديقنا سامي الصغير الذي كان أمام عيني نوعام كتابًا مفتوحًا يقرأ فيه، فكان على علم بمخاوف الفتى الصغير وأن أكثر ما كان يثير في نفسه الخوف هو الأشباح فأحسن القط تقليد شبح ملاءة السرير الذي كان أكثر من كاف لإفزاع سامي.

وانطلقت الصرخات متوالية، وامتلاً البيت بضجيج قاطنيه تلتته أصوات الحيوانات الغاضبة الثائرة، فبعد أن أدخلت عائلة نوعاه الرعب في قلوب ساكني البيت حتى دخلت جماعات كثيرة من ققط الشارع إلى داخل المنزل كانت منتظرة لإشارة الصراخ، كان البعض ممن دخلوا قد وضعوا أغطية بيضاء على أجسادهم سرقوها من منازل أخرى، وكانت مهمة هذا الفريق السيطرة على غرفة سامي فكان لهم ما أرادوا؛ حيث انطلق الصغير بأسرع ما يمكن لرجليه الجري خارجًا من غرفته إلى غرفة الجلوس، أما بقية الققط فمنهم من هجم على غرفة نوم الأب وكانوا من أكثر الجمع وسخًا، ومنهم من انطلق إلى حيث

المطبخ ليكسروا ما شاء لهم، فعاثوا فسادًا في المكان وحطموه حتى أن الأم فقدت السيطرة على أعصابها، وأخذت في صراخ حاد بلغ مسامع كل أهل الحي، ومن القلط من توجه إلى غرفة الصغيرة فاتن، فمزقوا ما وجدوه من الأقمشة وغرسوا مخالبهم بالدمى وأتلفوا اللعاب.

كانت بضعة لحظات خيل لأفراد العائلة أنها أيام، بضعة لحظات من الجنون العارم غمرهم، فأخذوا في صراخ متواصل وبكاء غير منقطع، توجهوا جميعهم إلى غرفة الجلوس، حيث أحاطت بهم القلط من كل جانب وحاصرتهم من كل ناحية.

تقدم برين إلى حيث الحلقة التي قبعت عائلة السيد أحمد بها، وأعلن للقطط أنه قد تخلى عن حقه في البيت وأنه يعترف لهم بحق الملكية وحق البقاء.. تقدم نوعام إلى حيث برين وخطب في الجمع:

«اليوم يا رفاقي وإخوتي نأخذ بثأرنا ونؤكد وجودنا، اليوم أيها الشعب العظيم، اختارتنا الأقدار لنمسك بزمام الأمور في هذا العالم بعد أن تحكّم غير المستحقين به طويلاً، اليوم نسترجع ما ملكنا منذ الأزل وما استحققناه منذ القدم، ولا يملك أحد أن يقول أن له علينا عرفاناً أو إحساناً بعد أن انتزعنا حقوقنا بأيدينا، أيها القلط اسمعوا وعوا، من كان منكم على مبدئنا ومنهجنا ومؤمناً بحقنا الطبيعي في امتلاك بيت يؤويننا، فإن الوقت قد آن لنا ومن كان متعاطفاً مع هؤلاء الذين نفوقهم أحقية فليغرب عنا، إنا نعلن اليوم بداية عهد جديد وتاريخ عظيم، اليوم على الساعة الرابعة من بعد الظهر من هذا اليوم المبارك علينا، نعلن أن هذا البيت أصبح ملكنا...».

ولعلك يا بنيتي جميلة تتسائلين عن موقف أفراد عائلة السيد أحمد من هذا الخطاب، وأقول لك لأجيبك أنهم كانوا ببساطة في

حال من الصدمة، ناهيك عن أنهم لم يكونوا يستوعبون لغة القطط والحيوانات بشكل عام؛ لذا فقد وقفوا مبهوتين مندهشين مصدومين لما تراه أعينهم من غرائب الدنيا، ولكنها كانت الحقيقة ماثلة ببشاعتها أمام أعينهم وقبل أن يعوا ذلك وجدوا أنفسهم يهرعون خارجين من بيتهم متوجهين إلى الجيران طالبين المأوى، معظم الجيران كانوا قد قبلوا إبقاءهم عندهم، لكن أحدًا منهم لم يمتلك ذرة شجاعة واحدة تدفعه إلى اقتحام البيت واسترجاع ما سرق بغير حق، كان السيد أحمد يدور من بيت إلى بيت وهو يطلب عون هذا ويسأل المساعدة من ذاك، وكذا راحت الأم إلى صديقاتها الواحدة تلو الأخرى طالبة النجدة.

تنهد الجد من الأعماق وأضاف على كلامه ما انقبض له قلب

جميلة الصغيرة:

لم يكن البيت يا بنيتي هو الشيء الوحيد الذي خسره السيد أحمد وزوجته في تلك الأحداث الأسيئة، بل إنهما قد فقدوا إلى جانب البيت طفليهما، أي نعم، فإن هجوم القطط على العائلة جعل الأب والأم يفران خارجًا ظانين أن ابنيهما قد لحقا بهما لكن الواقع لم يكن كذلك، فما حصل أن كلاً من سامي وفاتن حوصرا في المنزل من قبل القطط، أو هكذا ظنت القطط في البداية لكن واقع الأمر أن سامي كان قد انتبه رغم صغر سنه وقلة تجربته إلى أنه إن ترك المنزل في هذه اللحظة فلن يعود إليه ثانية لا محالة، كما أدركت فاتن الصغيرة إلى أنهم لو فروا إلى الخارج فإن العداة لن يتوقف عند ذلك الحد، بل إنه سيمتد ليصل باقي الجيران، خاف كل من سامي وفاتن على أصدقائهما بالحي، وخافا على أبويهما وخافا على نفسيهما، لكنهما كانا مصرين

بقدر ما كانا خائفين وأكثر على البقاء تحديًا، كانت فاتن ترغب بإنقاذها
ما يمكنها إنقاذه من لعبها وعرائسها، بينما كان سامي راغبًا بإنقاذ قطه
الحبيب نوعام ظانًا منه ببراءته أن نوعام كان ضحية مثله، وأنه سيكون
في عونه لطرده تلك القطط.

في ذلك الموقف تقدم نوعام إلى حيث وقف سامي وفاتن
وكانت لحظات قبل أن يقفز القط على وجه سامي وينشب فيه مخالبه،
فزعت فاتن وصرخت بكل ما أوتيت جبالها الصوتية من قوة، أما سامي
فقد أبعد القط عن وجهه بعنف وفهم في ذات اللحظة أن ما عليه أن
يسعى لاسترجاعه كان بيته وعائلته وذكرياته لا صداقته مع ذلك القط
الخائن، انحدرت الدموع على عيني صديقنا الصغير لدى إدراكه
لانتهاه تلك العلاقة بينه وبين قطه المحبوب، ولكنه صرخ فيه من خلال
دموعه:

«أنت خائن وجبان، ولا تصلح صديقًا لغير نفسك، وأنا لست
ضعيفًا حتى يغلبني جبان مثلك».

اندفع سامي نحو جميع القطط وقد أمسك بعضها بيسبول موجودة
بخزانة الغرفة كان أبوه يستعملها في صباه وانبرى يضرب القطط التي
كان تتساقط متألمة من أثر ضرباته، فأمر نوعام القطط بالانسحاب وقد
أدرك أن الغضب كان قد استمد بالطفل الصغير الذي لم يكن قد رآه من
قبل في حالة مشابهة، انسحبت القطط إلى الطابق العلوي لفترة وقاموا
 بإعادة تنظيم صفوفهم وكان نوعام يجول بين القطط ويوصيهم باتباع
الخطة وعدم الخوف من ردة الفعل المفاجئة للأطفال، فما هم إلا
أطفال في نهاية الأمر، أما خارنا فقد كان دورها قد حان لتبدي قدراتها

مع أمها نوعاه، أما سامي فما كانت تلك اللحظة إلا لحظة عابرة من الغضب الحائق والثورة المتأججة سرعان ما انطفأ لهيبتها ولو إلى حين، وأما فاتن فقد راحت في بكاء مرير شاركها فيه سامي بعد برهة وتعانق الاثنان واعدن نفسيهما بالجلد والصبر وأنها محنة ستنقضي أو أنه كابوس عابر.

لم يتتبه الطفلان على أن خارنا وأمها كانتا تطلان عليهما للتأكد من مدى عزيمتهما وشجاعتهما لخوض القتال، ولم يخف ذلك الخوف في عيني الطفلين عن القطتين الداهيتين التي عادت على وجه السرعة لتبشرا جمع القطط بذلك، واستقر رأي القطط على العودة إلى الخطة الأصلية باعتماد نقاط ضعف الطفلين لإخافتهما وإجبارهما على الخروج قسرًا من البيت.

وأعادت القطط الأغطية على ظهورها ونزلت مغيرة على الطابق الثاني من جديد حيث الطفلين قابعين، فأما فاتن فما إن رأت الأشباح البيضاء حتى أسرعت مغادرة من البيت من نافذة غرفة الجلوس أتبعها سامي وهو في أشد حالته ذعرًا، لكنه ما لبث أن توقف عن الجري وانحنى على الأرض المعشوشبة وتناول من الحصى ما تمكن من حمله ووقف وجهًا لوجه قبالة القطط المتنكرة والخوف والشجاعة يتنافسان أيهما يحل بقلبه ويغشاه، وكان الفوز من نصيب الشجاعة التي ملأت عيني سامي وراحت تمده بالحماس لرمي ما جمع من الحصى تجاه أكبر مخاوفه، ثم إن الحماس كان كالعدوى سريعة الانتقال حيث توقفت فاتن أيضًا عن البكاء، وراحت تقلد أباها رامية العدو بالحجر، أما القطط فإن بعضها هوى أمام بضع من الضربات واضطرت القطط

للانسحاب تاركة الطفلين وقد عادا إلى غرفة الجلوس من جديد والعرق يتصبب من جبينيهما.. كانا عاجزين عن الخروج خوفاً من أن يسلب منهما بيتهما وذكرياتهما، وكانا أبواهما يسعيان بجهد جهيد لإيجاد المساعدة من بقية سكان الحي.. لكن خبر الاستيلاء على بيت السيد أحمد كان بالفعل قد انتشر، وبدأت الشائعات والأقويل بالانتشار بالمثل، وكأي خبر تنقله الأفواه فتحرفه وتضخمه فكذلك كان مصير الخبر حول فعلة الققط، وصارت عائلة السيد أحمد مضغمة لأفواه بعض من اتهموهم بالجبين للتخلي عن منزلهم، بينما كان فريق من الناس يقرون بأن الأمر كان خارجاً عن سيطرة العائلة، وأنه كان يمكن أن يكون مصير أي عائلة أخرى، وأخذ الناس يتناقلون الأخبار حول جماعة الققط وما فعلته، وحول مقاومة فاتن وسامي اللذان بقيا صامدين حتى ذلك الوقت بالبيت، وحول ما يمكن فعله لمساعدة جارهم أحمد وزوجته لاسترجاع حقيهما، أقيمت ندوات بين الكثيرين وأصبح الموضوع مصدر إلهام كثير من شعراء الحي ورساميه؛ لكن أحداً من أولئك لم يفكر يوماً في الانتقال إلى الفعل وإلى التحدي الحقيقي، بل إن أغلب أولئك الذين كانت أصواتهم تعلو على المسارح وفي الندوات كانوا يربون بيوتهم ققطاً كثيرة وكانوا لا يتوانون عن تدليلها، بعضهم من منظور أن هذه لا علاقة لها بتلك التي استولت على بيت السيد أحمد.. البعض الآخر قام بذلك من باب أن البقاء للأقوى ظانين أنهم بفعلهم يحمون بيوتهم من أن يصلها العدوان، وقد نسوا أوتناسوا حجم الإحسان الذي كان يلقاه نوعام الخسيس من طرف عائلة السيد أحمد.. ذلك الإحسان الذي لم يمنع الققط من أن ينقلوا على من لهم يد العون في الليالي السوداء الحالكة».

تنهد جد جميلة وجلس صامتاً وقد انتهى من سرد قصة البيت لحفيدته أو هكذا ظن.. حيث إن جميلة لم تكن قد اكتفت بمعرفة التاريخ البعيد بل إنها كانت تواقه لمعرفة حاضر الأمور فسألت جدها مستفسرة:

«وماذا يا جدي عن أيامنا هذه؟ هل ما زال سامي وفاتن على قيد الحياة؟ هل تراهما ما زالوا يقاومان وحدهما إلى الآن؟ وأنت يا جدي في ذلك الوقت ماذا فعلت لأجلهما؟».

نظر إليها جدها ملياً وقال لها:

«سامي وفاتن يعيشان إلى الآن في البيت المهجور في غرفة الجلوس تلك.. يصلهما أحياناً بعض الطعام من بعض أصدقاء الطفولة السعيدة، وفي بعض الأحيان الأخرى يخرج سامي لجلب ما يحتاجه وأخته دون أن تفتن لهم القلط، ويخبر الناس بمستجدات الأمور.. كثيرون حاولوا الدخول إلى البيت لاستشكافه، وكثيرون نجحوا لكن الدخول وحده لا يكفي لاسترجاع البيت، فالأمر في حاجة إلى أن تتكاتف جهود أهل المدينة كلها الأمر الذي أصبح شبه مستحيل بعد أن وضعت القلط يدها على أغلب عائلات الحي وجعلتها خاضعة لها بطريقة أو بأخرى.

«بأي طريقة أصبح البشر خاضعين للقطط ونحن نفوقهم عددًا وضخامة».

«ما قيمة العدد يا بنيتي إن كانت هممة النفوس مثبطة بالخرافات والأوهام، حتى أن الناس يعتقدون جازمين أن شعب القلط هذا لا يهزم لقوة مخططاته واستراتيجياته، ثم ما قيمة ضخامة العجثة إذا كان

الحماس معزولاً عن العقول، فالكل يا بنيتي يفكر بنفسه والكل لا يهمله إلا الحفاظ على بيته سالمًا من عدوان القبط حتى أن شأن عائلة السيد أحمد بات يخصصها وحدها».

«كيف يخصصها وحدها وهم جيراننا وقد أوصى رسولنا عليه الصلاة والسلام بالجار والإحسان إليه».

«كلامك ذو حدين يا بنية، أصبح الناس يعتبرون القبط جيرانًا لنا، وهم يعتمدون في كلامهم على حقوق كل الكائنات الحية، وبالتالي يقولون إن للقبط الحق في المأوى كما لنا نحن البشر ذلك الحق».

«لكن يا جدي كيف يكون لهم الحق وهم استولوا على ما لا حق لهم فيه؟».

«قلت لك من البداية، إنها ثقافة القوي تلك التي تغلب دومًا، ولكن الأمر على كل لا يخفى على أحد، فالكل بلسانه يندد بما فعله القبط، لكن المشكل في العزيمة أولاً، والصدق ثانيًا، وامتلاك أسباب النصر ضروري لذلك؛ لكن الأنانية التي تطغى على العقول تجعل من الأمر شبه مستحيل».

نظرت جميلة مليًا إلى جدها وقالت له بصوت متقد حماس: «فأما الحماس فلا ينقصني يا جدي، وأما الصدق فأنا كما ترى أتعاطف بالفعل مع سامي وفاتن، فكيف لي أن أقوم بمساعدة عائلة السيد أحمد؟».

كلمات جميلة كانت نافذة.. واضحة.. مختصرة.. بدا سؤالها كما لو أنها تقول لجدها لماذا لا نكون نحن من سيحدث التغيير يا جدي؟ لماذا نحن في انتظار الآخرين بينما الآخرون في انتظارنا،

وتمضي بنا الأيام هكذا دونما أن نكون قد أحدثنا فرقاً؟

ضحك الجد ضحكة خفيفة ووضع يديه على رأس الطفلة وقال:
«بنيتي.. جميل هذا التصميم وهذا الحماس في عينيك
الصغيرتين لكنك ما زلت فتية.. عندما تكبرين ستريين أنه مجرد حلم
يا صغيرة.. حلم حلمته مثلك يوماً في طيات قلبي، وما زال يخامرني
بين الحين والآخر لكنه يا ابنتي مستحيل التحقيق، ولن يكون ممكناً
حتى نقرر التفاوض مع القبط، ربما بالحوار سنكون قادرين على أن
نجد حلولاً، الحوار هو الحل، والمشكل الوحيد هو أن لا أحد يفهم
لغة القبط.. نحن في حاجة إلى تعلم لغتهم وعندما نفتتح مجال الحوار
معهم فنفهمهم ويفهموننا، ونتفق أخيراً».

وخرج الجد من الغرفة تاركاً جميلة مع كثير من الأسئلة التي
كانت تحيرها: لم قد يكون الحل هو التفاوض بينما نحن نملك الحق
الكامل؟ لِمَ نسعى نحن إلى الصلح وقد اغتصب حقنا أمام أعيننا؟
أليست الكلاب من ظلمت القبط فلمَ لمَ تعلن الحرب على الكلاب؟
ولِمَ لا يمكن للقبط أن تكون وفية وتتعايش في سلم مع البشر؟ فحتى
ولو ظلمها بعض البشر، ما ذنب سامي الصغير الذي لم تجن يده إثمًا
ولم يقيم يوماً بالإساءة لنوعام؟

كانت جميلة جالسة أمام زجاج نافذتها تتذكر القصة التي سمعتها
من جدها أمس عن ذلك البيت المهجور.. التفتت صديقتنا إلى حيث
يقع البيت وتنهدت من أعماقها، وهمت بأن تقوم من مجلسها لتساعد
أمها في أعمال المطبخ ولكن خيالاً غريباً كان قد استوقفها.. خيال بعيد
يقع خلف زجاج نافذة من نوافذ البيت المهجور.. خيال رجل عجوز،

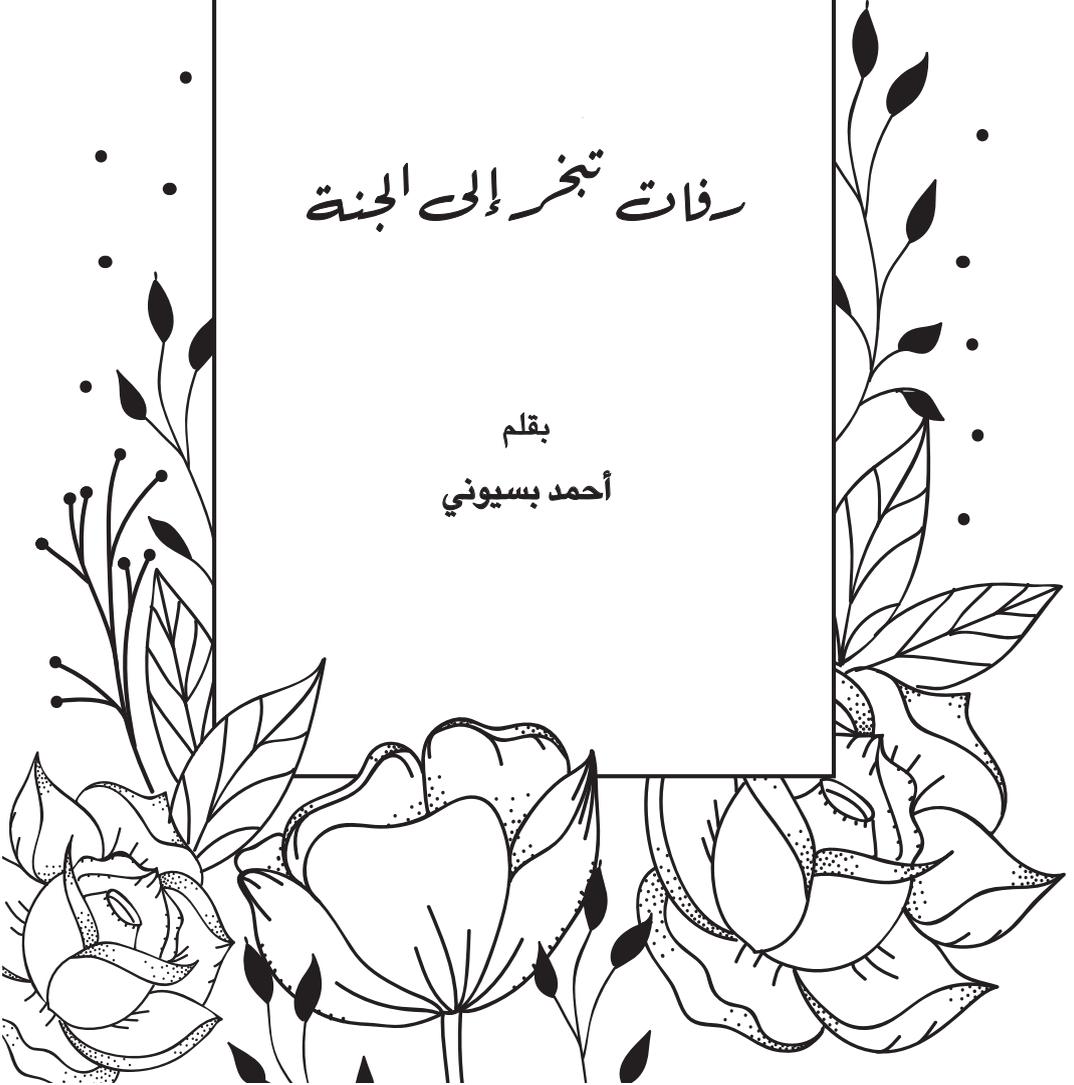
وخيل إلى جميلة أنها رأت وجه ذلك الخيال يبتسم لها، وخيل لها أنه يرفع يده ملوحًا لها بالتحية، وعرفت ببداهة أنه كان خيال الطفل سامي الذي مرت عليه بالبيت سنوات طوال صار بعدها عجوزًا، لكنه رغم ذلك لم يفقد القدرة على الابتسام، وبقي الخيال يلوح للطفلة من بعيد ويبتسم.

كان الشتاء وقتها على مشارف الانتهاء والربيع على وشك القدوم؛ ليعلن نهاية أفول نجم الأشواك وشروق شمس الياسمين والفل والزعتر.



رفات تبخر إلى الجنة

بقلم
أحمد بسيوني





المكان: شبه جزيرة سيناء (الضفة الشرقية من القناة)

الزمان: ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣

بعدها انتهت الحرب كنا تائهين في منطقة منعزلة من أرض سيناء.. منطقة عسكرية قديمة تركها الإسرائيليون وكانت معسكر لهم، وعشنا على المؤن التي معنا حتى نفذت، وانتظرنا فرق الإنقاذ أن تأتي أوحى فرد من الأعراب في المنطقة وأجهزة الإشارة واللاسلكي توقفت عن العمل بعد نفاذ شحن البطاريات، وخشينا المشى في المكان حتى لا نقع أسرى للإسرائيليين أو نكون ضحايا للألغام المضادة للأفراد، وكانت خشيتنا من الأسر أكبر من خشيتنا للألغام؛ لأن الإسرائيليين الجيش الوحيد في العالم الذي لا يتورع عن قتل الأسرى وكنا نعلم أنهم قتلوا أسرانا في ١٩٦٧ ودفنوهم في سيناء.

كنا في منطقة جبلية وكان المعسكر به خزان مياه ضخمة جداً ومكسور من طلقات المدفعية التي أطلقها الجيش المصري في أول أيام الحرب وكانت سبباً في هروب الإسرائيليين وفرارهم من المعسكر. كنا نذهب كل يوم نملاً الجراكن ونشرب ونستحم من مياه الخزان. ونأكل أي شئ حتى ورق شجر، أرنب جبلي أو حتى ثعابين أو فئران جبلية كنا كوماندوز (صاعقة)، وكنا مدربين على العيش في

ظروف قاسية جداً حتى أتى يوم ذهبت أنا وسامي فوجدنا الخزان قد انخفض مستواه، والخزان كان تحت الأرض، ولم يتبق على قيد الحياة إلا ثلاثة من عشرة رجال صاعقة خرجنا في مهمة خاصة جداً. نزل سامي لملء الجراكن فانزلت قدماه ووقع في مياه الخزان فمددت له يدي ولم أستطع إنقاذه؛ لأن الأرض كانت زلقة جداً، وكلما مددت يدي لإنقاذه انغمس في الأرض أكثر، ولم أرد أن أتركه وظللت ممسكاً به من كم الجاكت، ولم أرغب في تركه وعندما شعر أنه سوف يشدني معه ونغرق نحن الاثنان قطع كم الجاكت بالسونكي المثبت في بندقيته، وغرق ونزل في المياه بعد أن فعلت المستحيل لإنقاذه، ورجعت لزيميلي الآخر وحكيت له كل شيء، وظللت أبكي حتى منتصف الليل، وغرقت في النوم من الإرهاق، ولم أفق حتى رأيت الشمس فوق رأسي، وكان زيميلي قد سبقني عند أول ضوء للصباح للبحث عن سامي في الخزان ومحاولة انتشال جثته فلم يتمكن لصعوبة المكان.

وتوقفنا عن الشرب من الخزان بعد غرق سامي وظهور جثمانه الطاهر بعد عدة أيام، وحاولنا المستحيل لانتشال الجثمان بأي وسيلة فلم نستطع؛ لأن الخزان كان تحت الأرض وفوقه دشمة مدمرة حتى زيميلي الآخر عندما تجرأ وحاول النزول لانتشال جثمان سامي لم يستطع وأنقذته بمعجزة.

كنت أمر علي الخزان أنظر للجثمان الطاهر من بعيد وأقرأ ما تيسر من القرآن وأكلم سامي كالمجنون... كان مقاتلاً شجاعاً وعينياً وتذكرت الأشهر السابقة للحرب عندما ذهبنا في مهمته خلف خطوط العدو، واختار التوقيت في طقس عاصف جداً شديد البرد؛ لينفذ

مهمته، وذلك لأن العدو كان يخفف إجراءاته الأمنية في أوقات الطقس السيئ؛ لاستحالة تسلل أحد من المصريين في تحليلاته الساذجة، ثم يفاجئ سامي العدو بمهمته، ويعود مظفراً باسمًا، ونسمع بعد عودته انفجارات هائلة في معسكرات العدو وسامي سالم بعد عودته، لم يُجرح حتى إصبع قدميه أو يديه، ولكن الموت ادخره وكمن له في هذا الخزان العجيب؛ لينال الشهادة.

العجيب أنني كنت أمر كل يوم على الخزان، ولم يتحلل الجثمان، وظللنا علي هذا الحال عدة أيام، وفقدنا مصدر المياه الوحيد بعد غرق سامي، فقد كنا غير قادرين على استعمال المياه بعد غرقه، وشربنا من الندي.

وكنا نأكل أي نبات أو حيوان موجود في الصحراء، ومات زميلي ميشيل - وهو الوحيد الذي تبقي معي - مات من حمي شديدة أَلمت به، وسهرت به يومين أضغ له كمادات من أقراص كحول تبقت معنا، وكنا نستلمها كتعيين لصنع الشاي عليها بعد إشعالها، ولم أجد له أي دواء سوى بعض أعشاب الصحراء تعرفنا عليها من تدريبات الصاعقة؛ تخفض الحرارة، وفعلت المستحيل لإنقاذه، ولكن دون جدوى، ودفنته في ملابسه ولم أستطع تلاوة صلواته الخاصة به كمسيحي عند الدفن فصليت عليه صلاه الجنائز. وتذكرت حكاياته عن بلدته السباعية التابعة لمحافظة أسوان، وتذكرت اعتزازه ببلده السباعية مازحًا: «بلدنا السباعية لا تنجب إلا أسود وسباع».

وتذكرت حكاياته عن القصب والريف والنيل، وهوايته في اصطياد الثعابين، والتي كانت سببًا في دخوله الصاعقة. والعجيب

أن سامي كان من الإسكندرية من حي كرموز العتيق، وميشيل من السباعية من أسوان، وكنت أنا من سوهاج، كنا عنوان لمصر بطولها وعرضها. وظللت وحدي وأيقنت أنني هالك لا محالة فحفرت قبري بجوار زميلي ميشيل ووضعت عليه شاهد به اسمي بالكامل، وبلدي، ومعلومات كافية لمن يجد قبورنا تمامًا كما صنعت لزميلي ميشيل، وكنت أمر على الخزان كل يوم حتى حدثت مفاجأة...

إن جثمان سامي قد اختفى تمامًا، ولا أثر له مطلقًا، ونظرت للخزان من كل الجوانب فلم أجد شيئًا مطلقًا... يا إلهي أين جثمان سامي؟ هل تبخر؟ هل صعد إلى السماء؟ الغريب أنني وجدت المياه رائقة على غير العادة وكأنها منحدره من جدول صافٍ، والأكثر غرابة ومفاجأة أنني وجدت شجرة زيتون صغيرة نبتت عند مدخل الخزان.

نحل جسمي من قله الطعام وأدركت أنني ميت في نهاية الأمر، وصرت لا أستطيع الحراك فذهبت إلى قبري الذي حفرته بجوار قبر زميلي ميشيل، ونطقت الشهادتين وانتظرت الموت يتسلل إلى جسدي الذي حسبته يومًا حصينًا، وذهبت في غفوة حتى أفقت على شيء يتحسس صدري ويسمع دقات قلبي.. يا إلهي هل مت فعلاً؟ وهل هذا ملك كريم يبدأ في حسابي؟ ووجدت من يهزني بشدة... هل هو الحساب؟ نعم إنها هزة القبر، واستعددت لأول أسئلة وأجبت دون أسمع أي سؤال:

«ربى الله، ودينى الاسلام، ومحمد نبي ورسولي»، ولكن فتحت عيني بصعوبة على أعرابي ضخم الملامح يناديني:
«يا زلمة... يا زلمة! هل تسمعني؟».

فأجبت بصوت خافت:

«ن ن ن نعم».

فرد الأعرابي:

«أفق يا دفعة! لا تخف أنا مصري مثلك، وأنت في أمان».

فجلست في قبري ونظرت إليه أكثر، وأشرت له بالعطش فأحضر قربة ماء من فوق ناقته، وبلل شفتاي، ثم سقاني بعدها بقليل، فاسترددت عافيتي، وشعرت بحلاوة المياه التي لم أذقها منذ أسبوع، وأطعمني الأعرابي من طعام كان معه خبز وجبن مصنوع من لبن الضأن، فأكلت كل ما معه من الطعام من شدة الجوع، وحكيت له قصتي كاملة، وقصة سامي، وأشرت إلى قبر ميشيل، وركبت معه ناقته حتى قرية بدوية على مسافة بعيدة جداً ولا تظهر من الأفق... أكرمني الأعرابي وأخذني هناك إلى قبيلته السواركة، وحكيت حكايتي لهم بالتفصيل مرة ثانية، فأخذوني لمركز قيادة الجيش الذين أحضروا لي طبيباً أعطاني بعض العلاجات والحقن المقوية والواقية، وأملت لهم اسمي بالكامل: جندي مجند صاعقة عبد الباقي نصر الضبع، ورقمي العسكري ٦٣١٠٠٠٠٠٠٠، والمفاجأة أنني عرفت بعدها أن القرية البدوية كان يعمل بها أعراب لحساب المخابرات المصرية قبل الحرب، وأن قبائل السعديين والدواغرة والبياضية والعقالية والعيادة والمساعد كانوا كلهم علي اتصال بالمخابرات المصرية قبل الحرب، وكان لهم دور هام في تدمير مراكز الإنذار المبكر التي أقامها الإسرائيليون؛ لمعرفة مؤشرات أي حرب قادمة، كما كان لهم دور في معرفة حقول الألغام، ونوع التسليح، وتحركات الجيش الإسرائيلي، ونقل كل هذه المعلومات لمركز القيادة بالقاهرة...

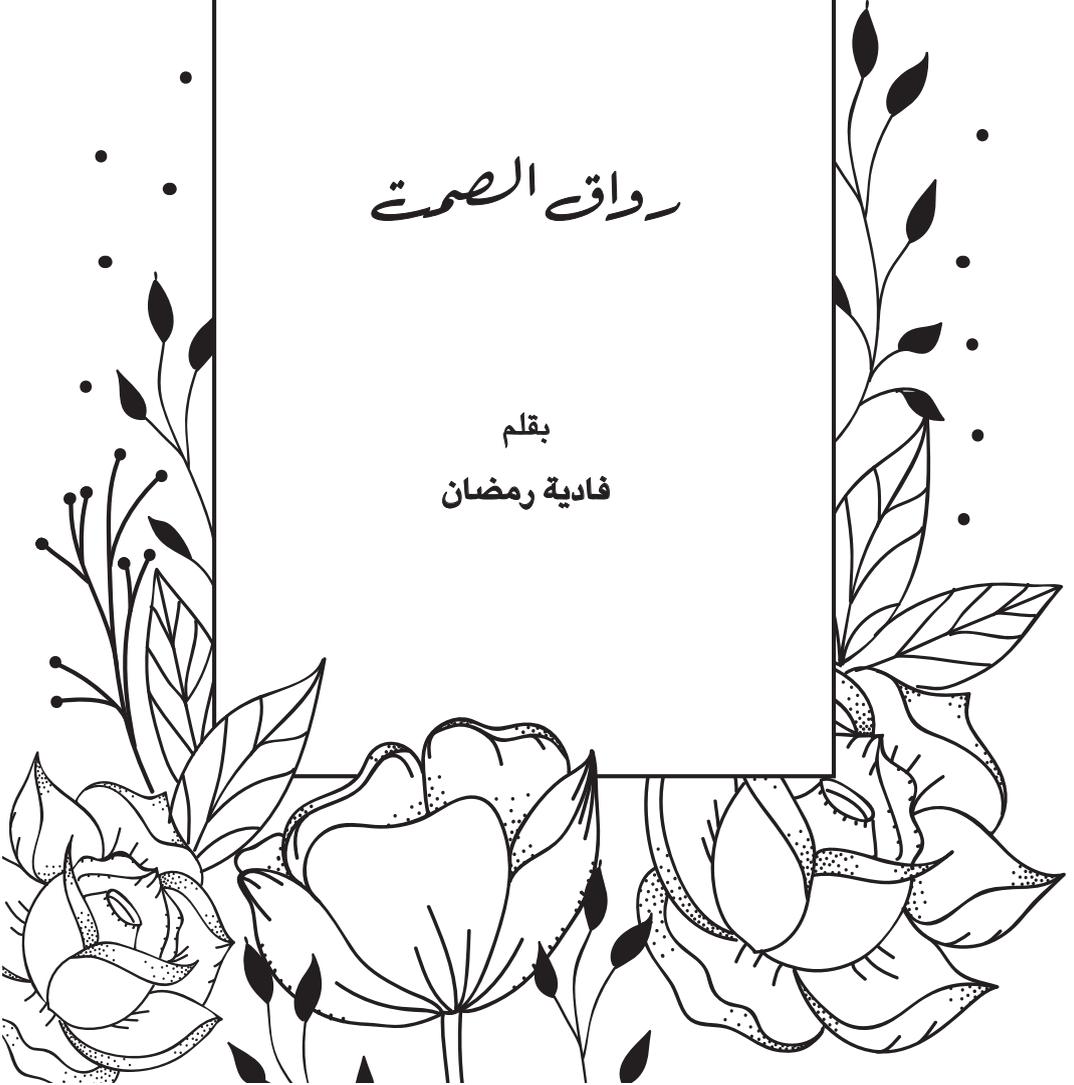
أرسل الجيش معي رجال المخابرات والصاعقة والضفادع البشرية، وأرشدتهم عن قبر زميلي ميشيل فأمروا بإحضار لجنة من الكنيسة لنقل جثمانه إلى أسوان؛ لدفنها وإجراء مراسم الدفن المعتادة للشهيد ميشيل، وذهبت معهم إلى الخزان لإخراج جثمان سامي، ولكن المذهل أنهم لم يجدوا أي أثر للجثمان الطاهر.

لقد اختفت الجثة تمامًا، ونزل رجال الضفادع البشرية وفتشوا كل شبر في الخزان فلم يجدوا شيئًا، ولم يجدوا له أثرًا حتى أنهم أرسلوا مياه الخزان للقاهرة لتحليلها، فلم يجدوا فيها أي خلايا بشرية، ولم يجدوا أي أثر، أو حتى دليل على أن الجثمان تعرض لنهب حيوان مفترس أو طيور جارحة، ولا حتى أثر لبزته العسكرية أو حذائه، وقدم رجال الإنقاذ تقريرهم المعتاد بعد أن نقلوني للقاهرة ثم بلدي الحبيبة سوهاج، وبعد أن كتبوا تقريرهم المعتاد والذي يفصلون فيه إجراءات البحث والخطوات التي اتخذوها ذيلوا تقريرهم بجملة غير تقليدية:

« لقد بحثنا عن الشهيد سامي طاهر عيسي في كل شبر من الخزان الذي غرق فيه، وشاهده فيه زملاؤه، فلم نجد أي أثر لجثمان الشهيد، ولا حتى أي دليل يدل عليه، وكأن جثمانه تبخر إلى السماء!!».

رواق الصمت

بقلم
فادية رمضان





إلى حد اليوم ما زلت أجهل الأمر الذي شدني إليك، وجعلني أدفع أغلى ما لدي مقابل تأشيرة تدخلني مدينتك، تأشيرة تدخلني لحياتك وتأذن لي بالتجول بين ثناياها العامرة؟ أكان ولوجي إليها يتطلب - حقًا - أنهارًا من الدمع ومذلة تجلد وجه الواحد منا، وتمسح به أزقة الكرامة الفخمة، فيصير جوربًا ممزقًا رثًا؟ أكان حقًا نقري على أبوابك يستدعي وابل الإهانات والجراح هذا؟

استملمتني، استقطبت عاطفتي، ثم أدخلتني حياتك وأريتي أجمل ما فيها من معالم النخوة ومشيدات الصدق وميداليات العطاء؛ أبهرتني وأنت تلتقط معصمي وتجول بي بين أزقتها النيرة البهيجة، وعلى وجهك ترسم ملامح طفل شيد قصرًا لوالدته من ورقة يا نصيب. وبما أنك تقمصت دور الولد بإتقان يا «آدم»، توجب عليّ التكيف ودور الوالدة الحنون العطوف، ففرحت لكل تصرف بدر منك، عانقتك بروحي متى احتجت دعمًا، حصنتك بدعواتي متى نسيت ذكرًا، بكيت لضيقك - دون أن تدري -، كنت لك صدرًا رحبًا ترتمي به متى شئت.

لكنك، اليوم، تحولت ولم تعد «آدم» الذي تبنيته، كبرت يا بني، ولا بد من أن أولوياتك تتكالب على الصدارة، وامرأة هشة المعدن

مثلي، لا قوة لها كي تصمد أمام أحلامك وأولوياتك، لا! لقد فقصت
بيضك الآن، وحلقت بحثاً عن قوتك في مكان بعيد جداً، بعيد عني،
عن وكري، تنصلت مني، هجرتني، تركتني خلفك أبحث عن مخرج
يخلصني من أزقتك المتداخلة.

أنا الآن وحيدة، تائهة، أتسكع عند منتصف الليل بين تلك الأزقة
العتمة الباردة، لا أعرف لنفسي اتجاهها ولا سبيلاً يخرجني من مدينتك
التي تحولت بين ليلة وضحاها من فتانة إلى مرعبة... أنا أجوب أزقة،
لا أذكر بأنني زرتها معك من قبل يا «آدم»؛ ظننتك أريتي كل شوارعك
ومخارجك، لكنني كنت مخطئة؛ كتب عليّ أن أواصل اكتشافني
لحقيقتك بمفردي على ما يبدو! لن أخفيك بأنني جد خائفة مما يترقبني.

حسناً، يسمى الشارع الذي علقته به «رواق الصمت»، إنه شديد
الظلمة يا «آدم»، يبدو مخيفاً جداً... مهلاً.. مهلاً.. أنا أرى سكيراً
مستلقياً عند عتبة باب كتب عليها «خمارة الذكريات».. أعتقد بأن عليّ
الاستنجد به، لعله يدلني على مخرج!

أخذت أدنو منه وأنا أرتعش من شدة خوفي، وما أن صرت
أقف على بُعد خطوات منه، وتحسباً لأية هجمة مرتدة؛ لأن منظره كان
لا يوحى أبداً بالوداعة، كان بشعاً، أشعثاً، ذا أظافر طويلة مقرفة، مرعباً،
رث الثياب، تنبعث منه رائحة قذرة لا تُطاق؛ حاولت أن أكلمه محافظة
على تلك المسافة،

«عفواً، سيدي.. أسمعني؟».

وهو بالكاد يتماسك:

«ماذا تريدون؟ هيا اغربي عني»..

«أتوسل إليك أن تساعدني.. دلني على مخرج أرجوك..».
 تأملني لوهلة ثم انفجر ضاحكًا:
 «تقول بأنها تود الخروج من هنا!».
 ثم أمسك بذراعي واسترسل:
 «لكن.. هل فقدت عقلك؟! أنا سكير، لكنني أوعى منك حسبما
 يبدو!».

«لكن... لم لا يمكنني؟».

«لأن «آدم» لن يسمح لك بذلك، ولأنني لا أسمح لك».
 هنا، صعبت وصبغ أصفر الدهشة مطلعي:
 «عفوًا، من أين تعرف هذا الاسم؟».

يرد مبتسمًا:

«كم أنت بريئة يا فتاة! وهذا سبب كافٍ كي أضغط على «آدم»
 ليقبلك رهينة عندنا، لا ينبغي له أن يخسرك أبدًا».
 «لكن، من أنت؟».

هنا صفت نفسي بكف الواقع على أمل أن أستيقظ من هذا
 الكابوس اللثيم، ثم أخذت نفسي تساورني: لا بد وأنني جنتت لأكلم
 سكيرًا لا، والأسوأ من ذلك أنني أحاول الإصغاء إليه، حاولت فك
 ذراعي من قبضته، لكنني لم أنجح.
 «أفلت ذراعي من فضلك!».

«مستحيل؛ لأن رحيلك سيقهرني، سيضعفني، أنا أتلذذ ببقائك
 هنا، أتلذذ بخدمتك الدعوية لهذه المدينة المنسية، أنا أعشق دمعك لأنه

خمري، خمري الذي ييقيني على قيد الحياة ويمكنني من تحمل هكذا عيشة؛ لأن بها شيئاً طاهراً وسط كم القذارة، أحتاج دمعك وعذابك كي أعيش... أبداً لن أسمح لك بالرحيل».

«أفلت ذراعي، أنت تؤلمني، دعني أرحل من فضلك..».

شدني إليه بقوة وقال:

« تعالي، سأريك شيئاً».

أخذ يجرنني بقوة وكأنني متهمة تساق للإعدام، بين تلك الزوايا العتمة التي كانت بحاجة لمصباح واحد فقط كي تتضح معالمها، كان نبضي متسارعاً، وأنفاسي متزاحمة، أرمي بخطواتي في درب مجهول المصير، كنت أرعد خوفاً.

وبعد أن مشينا مسافة معتبرة، إذا به يتوقف أمام باب حديدي، ثم أخذ يقلب بجيوبه - أظن - عن مفتاحه؛ ولما فتح الباب، تفاجأت بأسد مكبل، يحاول أن يزار لكنه كان مكتوم الأنين، هنا نظر إليّ السكير وقال:

«تأملي جيداً هذا الأسد».

أذعنت له.

«أرأيته؟».

«أجل، وماذا بعد؟».

عاود غلق الباب بإحكام مرة أخرى دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم سحبني مجدداً واتجهنا نحو بيت ليس ببعيد، والذي لم ندخله من بابه، بل تسلقنا شجرة قادتنا إلى سقفه، أين أمرني بأن ألقى نظرة من

الزجاج على دواخل ذلك البيت الذي وجدته ملتهبًا، تأكله النيران من كل جانب، كان وكأنه الجحيم.

«أرأيت جيدًا ما يحدث بهذا البيت؟».

«أجل».

ثم عاد لاعتناق الصمت، وأنزلني برفق من تلك الأغصان المتماسكة، ثم انحدر بي نحو الحانة التي ألفيته عند بابها، حيث ألفينا سيدات أنيقات، جميلات، رشيقات، يحسبن الخمر ويتهامن علي..

أو ما لي:

«هل رأيتهن؟».

فهزرت برأسي.

أخرجني أيضًا من تلك الحانة قابضًا على ذراعي الذي ازرق، وانتهى بي إلى بيت معتم، دخلناه بهدوء ثم أخذنا نزل السلالم على رءوس أقدامنا، وكأننا لصان، ولما بلغنا القبو، ألفيناه بين فكي العتمة المخيفة، فجأة أفلتني، لأضيع في ذلك الظلام الحالك، ولأتخبط في خوف هستيري... وبعد صمت مطبق، قال بنبرة متعجرفة، مخيفة:

«أتوقعين بأنني سأسمح لك بالمغادرة بعد كل الأشياء التي

أريتك إياها؟».

أجبت بصوت مرتجف:

«أية أشياء؟ فأنا لم أفهم شيئًا، أرجوك أن تخرجني من هنا».

أخذ يضحك وكأنه مجنون، ثم همس بأذني بطريقة أفرغتني:

«أنت تخشين العتمة، صح؟».

«بلى».

«جميل!».

«لمّ تعاملني هكذا؟ بم أسأت لك؟».

«ستعرفين الآن...».

حاولت أن أعرف موقعه من خلال ذبذبات صوته التي غزت المكان، لكنني فشلت، كان يرعبني، وكأنه شبح؛ لا تسمع له غير نقر خطواته المتفرقة، تارة هنا وتارة هناك، وكأنه يسخر مني! وكأنه يتعمد إخافتي! فجأة، تمت إنارة المكان، فوجدتني بمحيط مخيف، تملؤه لوحات تحمل طلاسم، ورموز غريبة، لم أفهم منها شيئاً، أخذت أتجول بنظري بين تلك اللوحات مبهمة المعاني، حتى وقع نظري على أخريات كتب عليها، بلغة أفقهها جيداً: «حقير»، «أنا لا أبكي أموراً تخليت عنها بقناعتي وإرادتي المنفردة»، «أكبر عشرين عامًا»، «وضيع فكر»، «غبائي من قام باختيارك»، «يا معذبي»، «حثة اختياري...».

استحوذت الدهشة على تقاطيعي، وأنا أتأمل بأحداق متسعة ذاك المكان المقرف، فإذا به يقترب مني، وعيناه تتدفقان حقدًا:

«أترين هذه الكلمات؟ أتعرفين من صاحبها؟».

لزمت صمتي ولم أجبه.

وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

«إنه أنت، أنت... أسمعت!؟ أنت.. كلما أرسلت حرفاً قصد

تدميري، جرحت بحرفك ذاك ركنًا من جسدي ورسمت بدمي حرفك القاتل ذاك، وتعهدت بألا أحل عنك وأن أزداد بطشًا بذاكرتك».

«حرفي؟».

«أنسيت؟ أم لأن «آدم» ظل صامتًا ظننت الأمر لم يؤثر بي؟».
فجأة سحبنى، وقذفتني أرضًا أمام خزانة أكل الدهر عليها
وشرب، ولما فتحها، وقعت منها ملايين الوريقات؛ حاولت أن أقرأ
فحواها، لكن دهشتي شلت ذهني عن استقبال أو ترجمة أي شيء،
فقلت بنبرة تخنقها الدهشة:

«ما كل هذا؟».

فيرد بنبرة ملؤها الخيبة:

«رسائلك، كلها، لم يضع منها حرف واحد».

ثم رجمني بزجاجة العطر التي أهديتك يا «آدم»، ثم دنا مني وهو
يحملق في بطريقة مربكة، التقط يميني وسلمني أول خطاب خلعت فيه
مشاعري خمارها بحضرتك.. لا أفهم يا «آدم» كيف لهذا السكير أن
يعرف كل هذه التفاصيل عنا!؟

وضعت كل شيء من يدي، وهممت خارجة من القبو، لعلي
أستفيق من هذا الكابوس المزعج، لكنه لحق بي واستوقفني قائلاً:
«لا لا، لم ينته العرض بعد».

«أرجوك! هذا يكفي، دعني أرحل».

«لن تهربي، دعيني أعرفك أولاً على الأماكن والكائنات التي
صادفتها منذ حين».

«كلا، لا أريد أن أعرف، شكرًا لك».

«أنت لم تري شيئًا بعد في صمت «آدم»، لا، وكنت تحاولين
كسر قيود صمته! أندمت الآن؟ أتشعرين بالخزي؟».

«كلا، لكنني اكتفيت، لا أرغب بالمزيد». «كنت شجاعة جداً حينما دخلت رواق الصمت، فكوني كذلك حتى النهاية».

دفعته لكنه حاصرني إلى الحائط حابساً نفسي عن الهلع.

«أول ما أريتك إياه، ماذا كان؟».

قلت له بنبرة ملؤها الخوف:

«الأسد المغلول».

«أتعرفين ماهية ذاك الأسد؟».

«لا، لا أعرف».

أخذ يعبث بخصلاتي، ثم اقترب مني وأخذ يتسلق عنقي بأنفاسه القذرة، ثم استرسل:

«ذاك الأسد هو... الشوق، شوقي العاصف لك، شوق «آدم» المرضي لك، فإذا حررتك من مدينتي وأطلق «آدم» سراحك، لن تكوني تحت رقابته، سنجازف كلانا بخسرانك، وأنا لا أحب الخسارة، أخشى الخسارة، أتعلمين لم؟ لأنك إن رحلت، سيتحرر شوق «آدم» لك وأفقد بذلك سيطرتي عليه، ولأنني سأكون أول ضحايا ذاك الأسد، ولا شك في أنه سيمزقني، رحيلك سيفقدني حياتي، أتعين ذلك؟ وبالتالي لن أجازف..».

«لكن من أنت؟».

«شووووو... وما الشيء الثاني الذي أريتك إياه؟».

وأنا أحاول حبس نفسي عن استنشاق قدرته:

«المنزل المحترق».

«آه.. المنزل المحترق، وهل تعرفين ما تأويله؟».

«كلا لا أعرف».

أخذ يداعب برفق ذراعي بأنامله المقرفة، ثم قبض عليه بشدة وقال:
«تلك النارهي... نار الغيرة، ورحيلك يعني أن يفقد «آدم» أبسط
حقوقه بك، وأن يتحمل رؤيتك تلتقطين ذراع رجل غيره، معناه أن
يكون جسدك، خصلاتك، عطرك، كلماتك، زيتك ملك لرجل غيره،
رحيلك يعني حظرنا عن مستجداتك ونفينا عن أرضية مخططاتك،
معناه أن يحمل رحمك جنين رجل آخر، و«آدم» لن يتحمل ذلك، أما
أنا! فسأموت لأنك إن رحلت ستتحطم جدران تلك الدار المتماسكة
وتحترق المدينة بمن فيها».

لم أستطع قول شيئاً حينها، وكأني فقدت لغتي، فإذا به يعاود
سؤالي من جديد عن أمور لا أعرف لها تأويلاً:
«وما كان الأمر الأخير الذي أطلعتك عليه؟».
«الحانة».

وهو يحملق في عيوني بتمحيص:

«تعرفين النسوة اللاتي كن بها؟».

«ومن أين لي أن أعرفهن؟! لا بد وأنهن من يمتعنك في وقت

نزواتك».

«أصبت، فعادة أرواد تلك الخمارة فقط من أجلهن، لكنني

أهواك أكثر منهن؛ أنت أنقى منهن وأطهر...».

اقترب مني وأخذ يداعب وَجَّتِيَّ بيديه المقرفتين، وقد توهجت
عيونه بالرغبة الحقيمة، واسترسل هامسًا:

«لي أن أضاجعهن متى شئت، أما أنت! فعلى الرغم من أنني
انفرد بك، وبداخلي رغبة جامحة مرضية في الحصول عليك، لكنني لا
أستطيع أن ألوثك، أتعرفين ما الفرق بينك وبينهن؟».

بعد أن أبعده عني كي يطيب لي التنفس:

«لا أعرف».

«الفرق بسيط، هن، أرغب بأجسادهن، أما أنت، فأرغب
بروحك، فقط روحك».

لوهلة تملكني الخجل، فحاولت أن أبعده عني لكن حجمه فاق
طاقتي.

استرسل:

«لا تخافي، لن أؤذيك، تلك النسوة هن ذكرياتك، ذكرياتي، أنا
و«آدم» معك، هذه الذكريات هن من يضمنن قوت وأمان سكان رواقني،
يخدرنني عن غيابك، أضاجعهن كي لا أحن إليك، أطردهن مني بهن..
وأبعث بإحداهن في كل ليلة لـ«آدم» كي تسليه وتعزز من ثباته كي لا
يضعف، وينحر صمته أمامك، أرشوه بالذكرى كي يقوى وإلا دمرتنا».

قلت بأعين يرهقها الفضول:

«ماذا تريد مني؟».

«أن تبقي، ألا تحبي رجلًا بعدنا، أن تتألمي، أن تتعذبي دون
أن تقطعي أمل الوصال يومًا، أن تكوني فقط لنا، ألا تسمحني لرجل

آخر بأن ينهي استبدادنا في حياتك، أن تدمني عطرنا، أن تقبلي شوكتنا
وتؤثره عن ورود البقية، كوني وفية لنا، وإن هجرك «آدم»، كوني على
يقين من أنني لن أتخلي عنك أبداً، لأنني أعيش على قيدك يا فتاة».

«أنتما! من أنتما؟».

«أنا وآدم».

«ومن أنت؟».

وهو يضحك:

«أنا حاكم رواق الصمت يا «صوفيا»، أنا غرور آدم».



الاروب من جنة آدم

بقلم

عبير السيد





رأيتها لأول مرة أمام باب المركز الإسلامي في فلورنس العتيقة. ذلك المكان المعطر بعبق المباني القديمة التي تعود إلى عائلة الميديشي.. ومن منال لم يقرأ عن لورينزو المانيفيكو وكوزيمو، فهي من أهم العائلات التي حكمت وسطرت تاريخ فلورنس المسماة باللهجة الفيورنتينية فيرنزا.

وبدا لي وأنا أقرأ تاريخ هذه العائلة في كل مكان أن كل شيء قد هرب من آدم حتى أن هذه العائلة في نهاية تاريخها كانت كلها نساء، ولم يكن هناك آدم واحد ليستمر في حكم فلورنس، فسقطت العائلة في آخر ١٦٠٠.. ولكل زمان ومكان. يسيطر آدم فقد انتهت العائلة بسبب انتهاء إنجاب الذكور.. ولكن هل تنتهي حواء. فسواء هي من تنجب آدم. وتحتويه طفلاً وشاباً ورجلاً وصديقاً وحبیباً وأباً؟ هل تستحق حواء كل هذا العذاب؟

صافحتني بحرارة، وكلمات عربية مكسرة الأوصال، فلا تكاد تعرف لحرف الحاء أو العين مكاناً بين خليط من الكلمات الفرنسية والعربية أو الإنجليزية، وربما لغة أخرى لا أعرفها، وقد دق حرف الرء المعقوف إلى إلغاء أذني فابتسمت حينما أخبرني باسمها العربي، والذي تحولت فيه الرء إلى «غ» فزادت جمالها جمالاً، وزادت أشعة

الشمس بياض بشرتها إلى أن أصبحت كوجهة القمر. فحواء كانت فقط
٤٠ عامًا؛ لونها الثلجي وشعرها الأبيض ليس إلا هدية من هدايا الله
كما أخبرتني وهي تمزح:

«هل رأيت مسلمة عربية بلون شعري؟ أنا كثير مكسوف أدخل

مسجد».

وكان الحق معها، ففي الداخل كانت كل النساء أفريقيات
يحملن ميراث الأم السمراء، تندرج ألوانهن وعطورهن بل أسماؤهن
وكأنك تتجول بالكاميرا من سحر إلى آخر من بلد إلى آخر كما تندمج
الألوان في قوس قزح.. جلست وبجاني حواء أمريكا الشمالية البيضاء
بلون الثلج أنظر إلى ملف الصور أمامي.. هذه حواء الهاربة من جنة
آدم الصومالي، أتت إلى إيطاليا تاركة أربعة أبناء في رعاية أمها.. وهذه
حواء ذات العشرين عامًا السودانية الفارعة تتهادى ضفائرها الصناعية
وراءها منادية أن من يعلق بها لن يتمكن من الخلاص، رائعة هي
ابتسامتها، وهناك تجلس الأذيكساتنية بلباس غريب مزركش بنقوش
رائعة الجمال؛ تحمل عبق التاريخ كم من حواء حولي! إنهن كثيرات،
جميلات، متنوعات، وبظلي الخفيف ابتسمت فابتسمن جميعًا، فقلت
فورًا:

«هيا نلعب، لما لا نتبادل الأدوار وتحكي كل واحدة شيئًا عن

نفسها وعن بلدها؛ فلكل منا قصة..».

ابتسم الجميع وقد راقت لهن اللعبة، وكانت حواء الثلجية تنظر
إلي وعيونها الفيروزية تمطر دموعًا.. وسارعن جميعًا حولها لنفتح
باب ندخل منه إلى الأعماق.

«كان لي بيت وزوج.. وأب وابن، هناك في وسط الطبيعة الخلابة كانت جنتي، وأذكر أنه في يوم اصطحبني أبي من ذراعي إلى الكنيسة الصغيرة في الحي الراقي؛ ليسلمني إلى آدم ذي الشعر الذهبي والعيون بلون السماء، أذكر أنني كنت أطيّر بأجنحة ذهبية وردية؛ كانت الورود في كل مكان، والشموع لم تتأثر بالأجواء الباردة، ولا الثلوج التي تغطي صفحات الطريق، فكل شيء كما اعتدنا عليه إلا قلبي، فهو كان غريباً لا يتوقف عن العمل بشدة لا يمهلني صوته العالي لكي أسمع تصفيق الأهل والأصدقاء، ولا حتى لأسمع كلمة راعي الكنيسة الذي يعقد الزواج، لم أشعر إلا بخاتم ماسي يلمع في إصبعي، وعيون تبسم بالدموع من حولي، وكلمات كم أنت جميلة! كم أنتم رائعين أيها الزوجان! وأخذني آدم من يدي مهرولاً إلى سيارته التي لم أعرفها من كم الزهور البيضاء والصفراء، فقد كان يعرف عشقي للزهور الصفراء، وتساقط على ثوب زفافي الأبيض المائل إلى الصفار، حبات الأرز البيضاء كما اعتاد أهل بلدتي أن ينثروا الأرز الأبيض؛ رمز للخير والبركة فوق العروسين...».

بكت حواء. وبكى معها الجميع، وأدركت الموقف حواء المغربية، وكان معها إبريق مزركش يستعمله أهل المغرب عادة في طقوس الشاي، ووزعت الأكواب الصغيرة الملونة، وصمت الجميع على رائحة النعناع تتسلل بين القلوب الحزينة لتهدئ من روعها، وهدأت حواء البيضاء بياض الثلج، وابتسمت قائلة:

«حينما نفكر في الأحلام، فكل منا له مدة زمنية، بعضنا يحلم ٥ دقائق ويستمتع كما لو كان الحلم ٥ سنوات، وبعضنا يحلم سنوات وتمر

كالدقائق ولا يظل من الحلم إلا الذكرى التي تهز القلوب والعقول... أفقت من حلمي بعد ٥ سنوات كان كل شيء يبدو لي على ما يرام، كانت ضحكات طفلي تملأ المكان، يركض ويلعب مع الكلب الصغير الأبيض، فقد أهداه أبي لي منذ أن وُلد ابني حتى يكبروا معًا ويلعبوا معًا، وقد كانت البهجة في كل مكان، وكان ابني شديد التعلق بكلبه الصغير، وكنت أنا قد أكملت دراستي الجامعية وحصلت على الماجستير في الكيمياء، وأعمل في مركز الأبحاث، وبدأ لي أن حلمي بلا نهاية لكن فجأة لا أعرف كيف، لا أعرف لماذا! لا أعرف، استيقظت..

وأكملت كوب الشاي بهدوء...

«فقد أرسل لي آدم رسالة أن أعود مبكرة؛ لأنه يريد التحدث معي. وسألته هل الطفل بخير. فأجابني نعم إنه عند جده فابتسمت واطمأن قلبي.. في الطريق وكعادتي دخلت إلى حانة الحلوى، واشترت الخبز الساخن المحشو بالكريمة اللذيذة. فهو يحبها، وقالب من الشيكولاتة اللذيذة لابني ولم أنس بوبي الصغير.. وفي الطريق وكالعادة أهداني جاري وزوجته المسنان بعضًا من الزهور الصفراء من حديقته فهو يعلم حبي للزهور وخاصة الصفراء.. وجدت الباب مفتوحًا، وحقبة كبيرة بجانبه.. هل يمكن أن يكون أتى عمي.. عمتي.. من؟ ربما من أهل زوجي.. دخلت وكلي فضول فرأيت آدم واقفًا يشرب سيجارة ويبدو عصبيًا جدًّا، يهرب من نظراتي ولم ينظر إلى الزهور الصفراء، ولم يمازحني كالعادة بأن الحلوى ستجعلني سمينة مثل جارتي التي أهدتني الزهور.. قبلته وكان لوحًا من الجليد تسعى فيه الحياة ببطء.. ماذا؟ ماذا حدث؟ بالله عليك تحدث صمتك يقتلني..

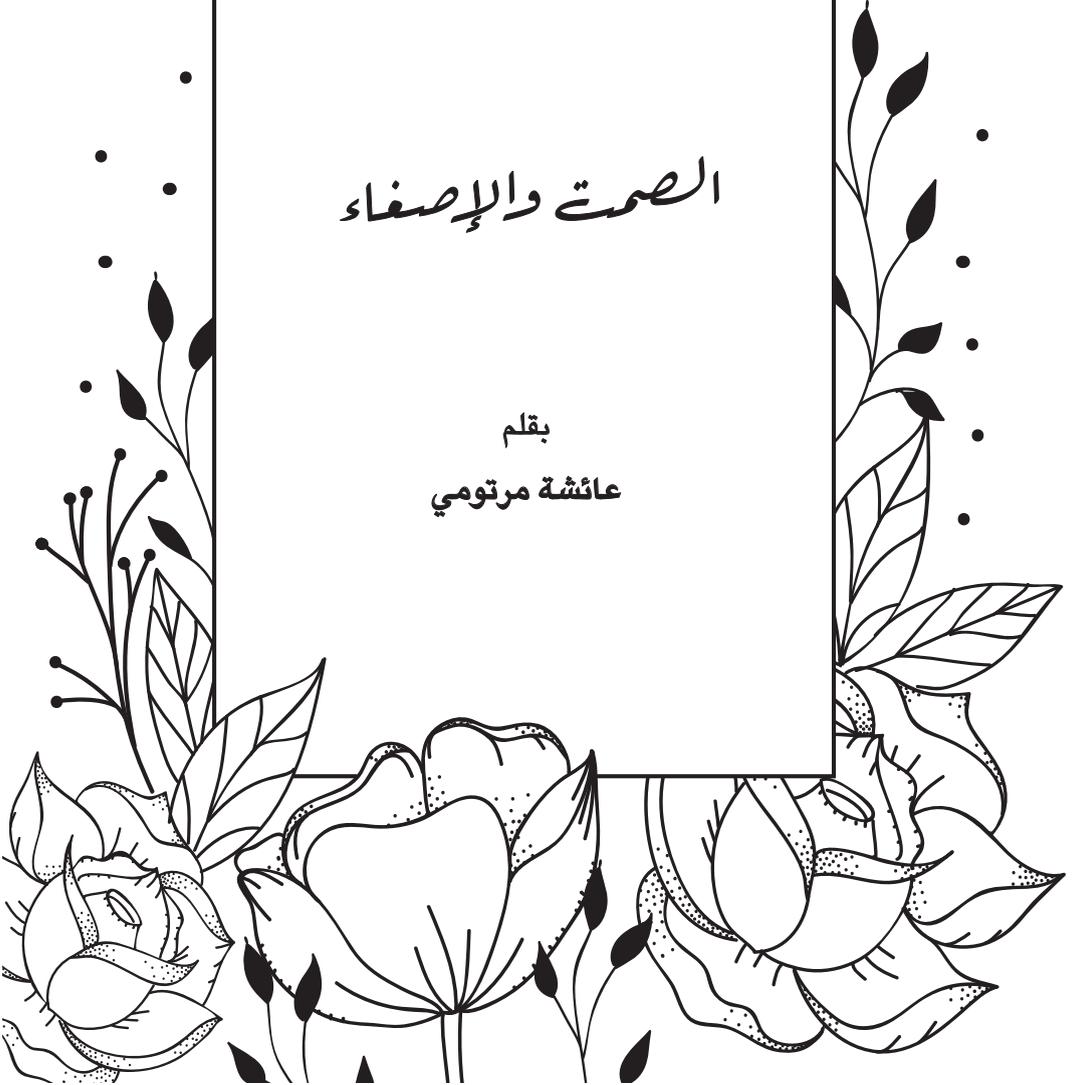
كلمات مسمومة شقت أذني وكان وجهي الأبيض مغرق في الدماء، وأزهاري الصفراء لهيب أحمر يحرق كل شيء.. جملة صغيرة فقط «لدي حبيبة أخرى.. لا أستطيع العيش بدونها.. لا أستطيع أن أستمِر في خداعك.. أنت لا تستحقين أن أخدعك.. تركت لك كل شيء؛ البيت، الطفل، كارت البنك، السيارة، كوني سعيدة، ستكونين أفضل بدوني». صرخت ولم تخرج صرخات، استغثت استعطفت رجولته، رجوته أن يوقظني من هذا الكابوس، أنا أحلم أخبرني اصفني حتى أصحو، ضربت رأسي في الحائط حتى أصحو، لم أر شيئاً غير شبح يتسلل من أمامي.. وحقيبة سوداء تختفي من أمام الباب، وأفقت في سرير المستشفى الأبيض فقد جاء جاري العجوز وزوجته وحملاني - لا أعرف كيف - إلى المشفى لأجد أبي بجانبى وبعض الزهور الصفراء، وتحسست رأسي عليها ضمادة بيضاء.. يا الله، أيقظني أريد حلمي، لا أريد هذه الحقيقة من أي أبواب العالم دخلت، ليست هذه جنتي، ولا أحلامي، ولا هذه زهوري، لا أريد أن أراها وطلبت من أبي أن يلقبها في سلة المهملات، لا أستطيع رؤيتها، وأكملت حواء كوب الشاي قائلة والآن... لو هناك إمكانية إرسال بطاقة إلى آدم فأرسل إليه زهرة صفراء وبطاقة شكر. نعم! أشكرك؛ أشكرك من كل قلبي آدم الراحل، أشكرك؛ لأنك انتزعتني من عالم وهمي لا وجود له... أشكرك لأنك علمتني أن أكون قوية، أشكرك لأنك تركت لي الحيز لأحب نفسي، لأحب حياتي، لأحب ابني، لأحب ما أنا عليه بدونك، فقد كنت كل شيء إلى أن تلاشى كل شيء، لم أكن أرى شيئاً وأنت معي ملكي، والآن رأيت كل شيء، عرفت كل شيء.. لو لم تفتح لي أنت أبواب الحياة لعشت دائماً خائفة خلف بابك، والآن لا أعرف الخوف، فحينما

أغلقت بابك في وجهي فتحت لنفسي ألف باب، وها أنا الآن، أكملت دراستي، وحصلت على الدكتوراه في الكيمياء، ها أنا الآن أقرأ وأفكر، واعتنقت دينًا جديدًا وجدت فيه حرיתי.. ها أنا الآن أطوف البلاد من شرقها لغربها، الآن وبعد عشر سنوات على رحيلك قضيت منها ثلاث سنوات في الصحراء الأمازيغية التي حولت لوني الثلجي إلى لون القمح المخدر كالنيذ العتيق.. ها أنا وأطير في كل مكان أشكرك؛ لأنك لم تدعني بل كنت صادقًا حينما أخبرتني أنني أفضل بدونك، أما أنت فمسكين ستظل سجين من جسد إلى آخر؛ لأنك تريد الجسد، ومن يبحث في الأثني عن جسد فلن تكفيه كل النساء.. أشكرك..».

وبينما الجميع في صمت رهيب إذا بصوت المؤذن في المركز الإسلامي يؤذن للصلاة، وانتقلنا جميعًا من باب الأحلام إلى باب الإيمان نسبح بين يدي الله في صلاة طويلة.. صلاة حواء.

الصمت والإصغاء

بقلم
عائشة مرتومي





كنت في الشهر الخامس من حملي.. أخفي طفلي بين ضلوعي وأستأنس بحركاته العفوية من أي إحساس عابر للوحدة.. كان الجور طبا صيفيا حارا كبقية أيام شهر يوليو.. دخلت لأستحم وقد تركت حنفية الماء تملأ الحوض.. وضعت رجلي الأولى وأعقتها بالأخرى.. هممت بالاستلقاء.. فتذكرت الستار الفاصل بين الحوض ومكان وضع الثياب والمناشف.. مددت يدي وسحبته بعنف فقد كان عالقا بشيء ما، وعدت أدراجي لألهو كطفلة صغيرة تداعب الماء، ويا ليتني لم أفعل.. فحين سحبت الستارة العالقة عنوة.. سحبت معها خرطوم الغاز من السخان.. فقفزت إليه قبضة نار متبقية في جوف ذلك السخان اللعين الذي كان على موعد مع القدر؛ ليتعاوننا على ترك بصمة في صفحة تاريخي الشخصي، وعلى جسدي.. أعود بمرارة لذكر سيرورة الأحداث مجدداً.. فبعد أن انسل الخرطوم من مكانه والتهب، انتقلت النار إلى الستارة البلاستيكية وحاصرني كجدار ناري فر من قلب الجحيم، ليحضنني ويحشرني بين الماء ونقيضه؛ بين الحوض والنار الملتهبة.. آه.. على جسدي وما قاساه يومها! تلك الجراح العميقة التي تذكرني بها المرايا العاكسة أينما قابلتني صدفة.. هي التي تحثني على الاستمرار في السرد لعل دموعي التي تنساب مني برطوبتها تسحب جزءاً من آلام استوطنت ذاكرتي وروحي

وجسدي.. فبعد اشتعال النيران في ستار الحمام.. حاولت الهروب ركضًا بشكل غريزي لا عقل يحكمه.. إنها حمى الإدرينالين هي وحدها التي أنستني الألم الذي كان ينهش لحمي، وأنا مهرولة هاربة من أسنة النيران والبلاستيك الذائب.. ومن قدر.. كمن لي في مكان وموعد لم أتوقعه قط.. ارتفع صراخي وعويلي وأنا أفقد قوتي شيئًا فشيئًا.. وفي المنظر موت أكيد.. وخارت قواي وقد شعرت بقمة الألم وبالدوار بعدها حتى اختنقت أنفاسي فلم أعد قادرة على الصراخ أكثر.

وصل زوجي خلال ذلك وسمع ما كان مني، ولكن إنقاذي استغرقه الوقت القصير الذي احترق خلاله معظم جسدي.. فلما كسر الباب ودخل كنت أنا قد فقدت الوعي.. بل ولم أفق بعدها إلا بوقت طويل.

قضيت أربعة شهور في الإنعاش لا وصل لي بالدنيا.. غير الألم المضمن.. وكوابيس من أحداث الماضي.. تخترق ذاكرتي وترهقها.. صوت أمي لم يفارقني وأنا بين الموت والحياة.. كانت تحدثني وأسمع بكاءها ودعاءها أو كما تصورتها تحضرني بين حين وآخر.. لقد عادت إليّ كل الذنوب التي ارتكبتها في حقها قبل زواجي.. عبر نوبات متعبة وشاقة، منذ رفعت يدي بوجهها وعققتها.. منذ صدمتها بابتها الوحيدة وتخليت عنها وهجرتها؛ كي أرتبط برجل ثري في سنها.. متزوج ورب لعائلة، فقط لأنه ثري.. مرورًا بخيياتي وذلك الزواج الذي تبينت حقيقته بعد الأوان.. إلى يوم القصاص.. إلى لحظة الحادثة.

نعم لقد كنت مذنبه بما فيه الكفاية، كي أنال ذلك الجزاء، فالمرأة التي سلبتها زوجها.. هي سيدة من معارف أمي.. وقرية منها كأنهما أختان.

هكذا كان ذهني المتعب يئن طوال الوقت، ويعود فيطرق مصغياً
لهمس في جواربي، وأنا ممددة لا أرد.. كأن أمي كانت تمسك بيدي
وتحدثني طوال غيبوتي، وتسألني أن لا أموت.

صمد الجنين في بطني طيلة ذلك؛ إذ استطاع بقدرة عظيمة
أن ينجو.. فقد تمكن الأطباء من إنقاذه في الشهر السابع.. وكانت
معجزة حقاً أن بدأت أعود شيئاً فشيئاً إلى الدنيا.. وأنا أم وطفلي تحت
الرعاية.. كانت سرّاً عظيماً.. يستوقفني كلما عادت بي الذكريات..
يجعلني أتأمل قدرة الله العظيم، فلما أن كتب لي الرجوع من جديد،
أفقت ذات ليلة على إثر رغبتني في الصراخ أن:

«دعوني».

أخاطب بذلك من هم حولي.. كأنني شعرت بأنهم سبب الألم
الذي أعانيه.. فصرت أردد ذلك بشق النفس وأنا لا أقوى على الصراخ،
وقد اختفى صوتي لا يكاد يبرح حلقي.. بينما كان هؤلاء الأشخاص
في خدمتي يسهرون على علاجي.. ملتفين حولي بشبابهم البيضاء..
أحاول جهدي تبين ملامحهم.. فلا أقوى.. ونظرت من حولي إلى
أضواء ساطعة وخيالات أشباح تجوب المكان، تبين لي بعد ذلك أنهم
ممرضون وأطباء مناوبة يتفقدون أسرة المرضى ويحصونهم، ومنهم
طبيب وممرضون عند سريري وعلى رأسي يقومون بعملهم.. جعلت
أغمض عيني بين حين وآخر.. والطبيب يفتحها بيده ويضرب خدي
بلطف وهو يخاطبني محاولاً إيقاظي فأفقت، وانتهت غيبوتي حين
قال خلال ذلك:

«حمدًا لله على سلامتك.. أنت بخير لله الشكر والمنة..».

وأنا أسمع بوضوح، عدت أدراجي إلى الحياة.. أتأمل هذا الجسد الملتف في ضمادات وشاش لا ينتهي، وأوجست في نفسي خيفة مما قد يعنيه ذلك.

نُقلت بعدها من الإنعاش إلى غرفة أخرى لإتمام علاجي، ومخاوفي على حالها.. فلما أن بدا لي ما كان مخبأً تحت الضمادات.. ونزع ما كان يلف أطرافي منها؛ عرفت ما آل إليه حالي خسرت جمالي.. كما خسرت أهلي وشبابي قبله.

ولاحظت زوجي وكيف تفاجأ لمنظري.. لما رأيته لأول مرة.. بعدما بدا جسدي، وهو يحاول أن لا يظهر منه ذلك، ولكنني قرأت في عينيه ما كان عليه من يأس وملل من أن أعود كما كنت.. فكان يتردد علي وأنا أدري أنه إنما يفعل ذلك لرفع العتب، ولقد رأيت في ذلك منه شفقة لحالي.. كانت أكثر ما استطاعه أيامها. فكنت أقول في قرارة نفسي كلما رأيته:

«لا عليك.. سأجربك الحرج الذي أنت فيه».

تملكني شعور رهيب بأن أتخلص من نفسي وأنتهي من كل هذا العذاب؛ فلقد خسرت كل شيء كما حدثتني نفسي أيامها.

طيباً كنت قد تخطيت الخطر، ولكن ذلك لم يكن لي عني لي شيئاً ونفسي حطام! ولقد رددت في سر أحاطبني وأنظر إلى المرأة لأول مرة وأنا في غاية اليأس والإحباط!!:

(١) سأخلص المرأة من منظر الكتيب.. سأخلص الدنيا من شر استيطان داخلك طويلاً.. ملتحقاً بحسبك الأخاذ.. مختبئاً وراءه.. متربصاً بالعابرين حياتك.. الآن وقد فقد جسدك أخيراً غطرسته! وفي تلك الحروق أشباح من الماضي.. كأنها أدعية قديمة عليك.. كأنه

السخط الذي كظمه المتعبون من كبرك طويلاً.. كأنها والدتك.. ردت عقوقك لها أخيراً! كأنك انتهيت.. فلماذا تطلع الشمس بوجهها الدافئ الجميل يوماً آخر على هذا الجسد المترامية أجزائه؟!..

في أرجاء ذلك المشفى الشاحب.. بإمكانك أن تشم رائحة الموت في أية لحظة! المتعبون من حولي زادوا من سأمي ومللي ورغبتي في الاختفاء، وحدها الممرضة التي كانت تدخل علينا الغرفة وهي تبسم وتنط بيننا تحاول أن تزرع بعض الأمل في نفوسنا المتعبة، فكانت تأتي إلي لتحدثني، وهي تحاول معي كي تخرجني من انكساري وكآبتي تلك، ولكنني كنت أظل على صمتي وحزني.. لا أرد عليها.. ولا أسمع معظم ما تقول.. لطالما رددت وهي تخاطبني:

(استخطين ذلك يوماً.. كوني قوية فقط)..

بينما أجيها في سر وكلي يأس وتعب:

(أنت في صحة وعافية.. ما أدراك بالحال الذي أنا فيه؟!)..

وكنت لا أنظر إليها إلا أن تجرب الوقوف أمامي مباشرة بقامتها المتوسطة وجسمها الممتلئ.. متعمدة بذلك أن تجذب انتباهي.. فيظل طرفي ذابلاً.. مشغولاً عنها و عما كانت تحاوله جاهدة معي كي أتأقلم.. حتى قالت لي مرة:

«امرأة كانت تزورك أيام كنت في الإنعاش برفقة زوجك، وأخرى كانت لا تنقطع عن المجيء كل يوم، فتبقى بالقرب منك وقتاً طويلاً تكلمك وتبكي، وهي على الأغلب والدتك».

رفعت طرفي نحوها لأول مرة أرى وجهها المستدير الحنطي.. أتأمل عينيها الواسعتين السوداوين وأقرأ عليهما أخباراً عن حبيبتي..

وأناشدهما أن تقلاني حالاً إلى ما رأته من أمر أمي.. كيف جاءت؟
وماذا كانت تقول لي وأنا غائبة عن وعيي؟

فواصلت تخبرني وهي تصف أمي وعطفها وذلك القلق من
فطرة الأم الحنون على ابنتها التي لا ترد عليها، وصفت بكاءها وكلامها
ودعاءها ومحطات في حديثها تعيد ذاكرتي إلى الوراء؛ لأن ما تخبرني
به الآن مر بذهني وعلى سمعي من قبل وعشته حقاً وشعرت به.. حتى
وقد كنت لا أرد ولا أستجيب.

أمي التي كنت أسمع صوتها وأنا غائبة عن الدنيا.. لم يكن ذلك
مجرد هلوسات جراء غيبوتي.. بل إنها حقاً كانت معي.. آه مما انتابني
حينها وهي تخبرني بذلك وأفلتت مني شهقات وبكاء مفاجئ كالسيل
ما كنت لأرده!.. كحمام يتطاير هارباً من حضن القفص العتيق.. بل
كحمم يلفظها البركان بعد مخاض عسير! حتى تفاجأت الممرضة
وأقبلت نحوي فضممتني وجعلت تواسيني وتقول:

(١) هوني عليك يا أختي.. ستشفين وقد تخطيت الكثير حتى
الآن.. فلا تكوني ضعيفة وواصلني.. أنت قوية.. ستعودين إلى حضن
أمك وأهلك ومن تحبين فاصبري..“

أئن لي أن أرى أمي بعد كل ما اقترفت في حقها.. أئن لي أن
أجعلها تراني ولقد فاقت أذيتي لها كل التصورات؟! فكيف أزيدها فوق
الوجع وجع رؤيتي هكذا؟ آه من نفسي وقسوتها التي لم تبق لي عذراً
في استرداد حضنها وعطفها اللذين أحتاجهما الآن أكثر من أي وقت
مضى!

وعادت فكرة الانتحار تطرق بالي من حين لآخر وقد صرت

أكره نفسي حقًا، وأستاء منها، وأبحث عن سبيل لذلك، وعن فرصة أتحنينها، ومكان أتخلص فيه من نفسي بعيدًا عن كل من قد ينجيني أو يخلص هذه الروح المقيمة مني ومن هذا الحقد الرهيب نحوها.

جلست على سريري ذات ليلة وقد تحسنت حركتي إلى حد ما، فجعلت أطالع الغرفة التي كنت فيها ويالكأبتها وحزنها ذاك! كانت رابع ليلة لي فيها بعدما نُقلت من الإنعاش.. كرهت أن يتكرر ذلك مرة بعدها.. كرهت رائحة المكان.. كرهت وجودي فيه.. كرهت دقائق الساعة التي كانت تضرب الحائط كأنها تعدنا بالمزيد من الوقت هناك.. أنا.. وامرأة على سرير مقابل.

تعودت أن أراها هادئة لا تشتكي من شيء تلك المرأة معي بالغرفة.. ولا أسمع منها إلا همسًا تكسر به ظلمة الليل كلما أمسينا.. وأحيانًا يطول بها ذلك كأنها تكلم أحدهم.. فلما أطرقت أنصت إليها ذات ليلة وقد أفقت على وقع همسها فجأة! وجدتها تذكر الله.. والليل على وشك أن ينتهي، وشهدت وقد عادها رجل برفقة أطفالها ذات صباح كيف سعدت وجعلت تضمهم وتقبلهم في حنو عظيم، ورأيت طفلًا كان أصغر أولادها حاول السيد أن يدينه منها بينما اختبأ الطفل خلفه لا يريد أن يقربها.. مستغربًا أن تكون أمه بعد الحال الذي آلت إليه.. إذ كان وجهها غارقًا في خدوش وكدمات تخفي معظم ملامحه، بينما أوامت المرأة للسيد أن دعه، ودمعها قد تحجر على حواف عينيها يكاد ينزل! لم يكن الرجل زوجها حسبما بدا لي وكما قالت الممرضة التي حضرت معي هذا المشهد.. إذ التفتت نحوي وهي بالقرب مني مشغولة بعمل ما.. وهمست بهدوء تخبرني:

«هي خادمة في بيته، وهو يكفل أبناءها منذ ما حدث لها إذ تعرضت لحادث مثلك، وتعاني أزمات صحية أخرى.. كان الله في عونها».

قالت كلامها، فرددت عليها بعد برهة صمت مني ولأول مرة.. فلم أشعر إلا وقد قلت لها:
«آمين».

ابتسمت الممرضة وقد استحسنت ذلك مني، وأنهت ما كان عليها ثم انصرفت.

غادر الرجل الغرفة برفقة الصغار، وبقيت أتأمل المرأة بعض الوقت تمسح دمعاً تناثر من عينيها بعد انصراف صغارها، وقد أمسكته بعينين قويتين ثابتتين كأنهما تتحديان الحزن في شموخ عظيم، ثم همت بالنهوض والاعتدال كي تجلس على فراشها وهي تجلب شيئاً من تحت اللحاف فكان حجراً صغيراً تيممت به وصلت وهي في مكانها، وأنا أنظر إليها دون شعور مني.. كأنها سحبتني نحوها في تلك اللحظة بعفويتها وهذا الاطمئنان الغريب الذي كان حولها وعلى وجهها، رغم كل الألم الذي وصلني من دمعها المناسب قبل لحظات، وانغمست فجأة في صمت طويل أحاط بنا.. - أنا وهي -، بعدما خلصت من أداء فرضها، فجعلت أنصت إليها وقد استرسلت تذكر الله وتتلو من الأدعية ما بعث في روحي طمأنينة وسكينة، وشعرت لسماعها براحة نفسية حلقت بي بعيداً وأنا أكابر هذا الهم المقيم الذي جثم على صدري ليال وأيام، وإني كذلك حتى غفوت كطفل رضيع هدأ فجأة بعد نوبة بكاء طالته به وأنهكت جسده الصغير النحيل المتعب.

أفقت عشيتها كأنني أنام للمرة الأولى منذ ما حدث لي، وفجأة سمعت حركة أناس بالرواق قادمون نحو الغرفة التي كنت فيها.. ظننت بادئ الأمر أن السيد عاد للمرأة بأولادها ولكن الزوار الذين قدموا جاءوا لأجلي أنا، فبهت وأنا أرى الممرضة تدخل علينا برفقة السيدة التي صارت ضررتي فجأة وأمي، وبالرؤيتي أُمِّي تدخل علي وهي تمشي على عكاز!

التقيت وأمي لقاءً تراجيدياً يصعب وصفه.. بعد فراق عام ونصف وأحداث مزقت ما بيني وبينها أي ممزق.. نظرت إليها مشدوهة يبصر شاخص.. تتعثر في مشيتها والسيدة تمسك بيدها.. وفي يمينها عكاز تستعين به، كأن رجليها لا تحملانها، وهممت بالنهوض عن سريري إليها فشلت رجلاي.. ولم أستطع.

بكاؤها.. عثراتها.. خطواتها المتعبة نحوي.. تكسر عظامي كأنها تمشي عليها، وتؤلم روحي وتجلدني جلدًا على ما فرطت في حقها وما اقترفت.. انحنيت نحوي ورمت عكازها ودنت فعانقتني عناقًا طويلًا.. أذابني في حضنها.. تبكي وأبكي وقد انتهيت بين ذراعيها محطمة لا أقوى على الرد، ولا على كبت الشهقات التي تعالت مني ومنها، واصلت بكاءها وهي تطوقني وتقول:

«ماذا فعلت بي وبك يا حبيبتني؟! ماذا فعلت بي وبك يا قطعة من روحي أخذتها.. وابتعدت عني؟! أديتُ دور الغاضبة عليك وروحي لا تزال أمًا لك، وانتظرت طويلًا أن أتعافى لأتني إليك.. كي أرى وجهك من جديد.. لم يعد مهمًا عندي من قصرت في حق من.. ومن عليها أن تطلب الصفح والمغفرة».

سحقتني بكلامها، ونثرتني عبر أرجاء المكان أبحث عن ملجأ
لبقايا هذه الروح المذبذبة.. العاقبة.. شعرت أنني لا أستحق هذا الحزن
والاحتواء.

طال بنا الموقف وأمي تتحسس جسدي وتلمس أطرافي
والحزن باد عليها.. تحاول إخفاءه من حين لآخر إذ تسكت تارة وتقول:
«ستعافين.. ستعودين كما كنت يا قرة العين».

وتعود فيغلبها الدمع لتمسحه بأطراف خمارها كل حين.
الممرضة واقفة إلى جوار السيدة تبكيان والمرأة رفيقتي بالغرفة تنظر
إلينا وهي لا تكاد تفهم الموقف، متأثرة مغرورة العينين تردد من حين
لحين:

«يا الله!..».

حتى هدأنا.. وصارت أُمي تمسح وجهي وتحمد الله.
وقلت بصوت متحشرج أحاول لملمة سؤالي، وقد رفعت
وجهي نحو أُمي في ذل رهيب:

«ما ذا.. ماذا حصل لك يا أُمي؟ ولم العكاز؟».

فاستجمعت قواها كي ترسم لي شبه ابتسامة.. تشق طريقها
بصعوبة على وجهها المتعب.. لأطمئن وهي تجيبني:
«أنا أتمائل للشفاء يا حبيبتي.. لا تهتمي».

ثم سكتت وأردفت تقول:

«المهم أنت.. هل زال ألمك؟ أه من ليال كنت أراك فيها تتألمين
وأنت غائبة.. أسألك ولا تجيبين».

لم أجرؤ على النظر طويلاً إلى السيدة معها.. طأطأت رأسي، وقد بدا من إشفاقها ما كان يكسر غيظها كل حين، حتى اقتربت وقالت لي:

«حمدًا لله على سلامتك».

بينما منعني خجلي منها أن أرفع رأسي إليها.. جعلت أشيح بوجهي عنها جانبًا وقائل في نفسي يردد: لماذا تفعلين بي ذلك يا سيدتي؟!؟

كرهت نفسي كثيرًا لحظتها، وطال بي الشroud وقد انصرفت السيدة خارج الغرفة كأنها لم تستطع أكثر من ذلك معي.

ما كان ذنبي ليسعه الغفران!! وأنا أرى أمي بتلك الحال.. هكذا كان جل تفكيري طوال الوقت.. أعتبر نفسي اللئيمة الوحيدة بينهم.. كلهن يبكين لأجلي، ويسعين لرفع التعب عني وأنا لست أهلاً لهذا أبدًا.

ذهبت أمي وقد جاء الطبيب ليفحصنا، ورأيت في عينيها قبل أن تغادرني رغبة في البقاء إلى جانبي حتى آخر يوم لي بذلك المشفى، ولكنني قررت أن يكون ذلك آخر يوم لي بالمشفى والوجود كله.

أنهى الطبيب ما كان عليه وأمر بتنظيف المكان، فجاءت إحدى العاملات بهذا المجال وفي يدها سلة ملئت بقارورات من مواد التنظيف المختلفة.. كانت تستخدمها في مكان ما قبل أن تدخل علينا.. وتضعها على يساري قرب الباب.. أخذت تلتقط بقايا الأكل من حولنا.. وما تجده من علب الدواء أو الضمادات المستهلكة.. وغيرها من النفايات.. ثم شرعت في مسح البلاط وأنا شاردة ببصري نحو

السلة.. أين قرأت على إحدى العبوات بها كلمة (خطير!).. وبنظرة حقد يائسة جداً.. تبادر إليّ حالاً أن تكون هذه المادة الخطيرة وسيلتي كي أتخلص من نفسي.. وأنتحر! تحينت فرصة خروج المنظفة لحظة.. أثناء أداء عملها.. قبل أن تعود ثانية.. فنزلت عن سريري ببطء وحملت القارورة والمرأة التي كانت معي بالغرفة.. ممددة على سريرها نائمة.. كانت مادة حارقة مما هو مخصص لتنظيف البلاط والرواسب والرخام.. أخفيها بين أغراضي في حقيبة لي، وعدت إلى فراشي وقد استعجلتني المنظفة.. إذ سمعت حركتها عائدة.

أنهت ما كان عليها وانصرفت تلك العاملة وهي لا تشعر بما فعلت، والتزمت مكاني أنتظر أن يمضي الوقت ويهدأ المكان.. كي أفعل فعلتي وقد يئس من كل احتمال بالرجوع عن هذا التفكير الرهيب.

وأسدل الليل ستارة سوداء! وأنا على صمتي منذ انصراف من زاروني، لا أفكر إلا بهذا الأمر حتى أفاقت المرأة من نومها فجأة.. فنظرت نحوي ثم اعتدلت وهي تلقي السلام علي.. وتسالني: «كيفك الآن؟».

فأجبته بروح متعبة جداً:

«كأسوأ من أي وقت مضى!».

استنكرت مني ذلك فقالت وقد نفرت من إجابتي:

«لا يا امرأة.. استغفري ربك ولا تقنطي».

ثم أردفت وهي تحمل مسبحتها التي لا تفارق يدها:

«الحياة أهون من أن تذرني عليها دمعة واحدة.. انظري إلى هؤلاء الذين ينامون مثلنا على أسرتهن في الغرف المجاورة.. وفي أماكن أخرى.. أتحسبنهم أحسن منا حالاً؟ بل أتحسبنهم أقل مني ومنك همًا وألمًا؟ إن منهم لمن يرقد منذ شهور لا يجد من يفتقده.. وإن منهم لمن ينخر الألم عظمه ليل نهار ولا يملك إلا أن يصبر! من نظر إلى بلوى الناس يا ابنتي! هانت عليه بلواه.. فهوني عليك واستغفري الله العظيم!». قالت كلامها وهي تكابد ألمًا ما! إذ تسكت بين الحين والآخر وتضع يدها على صدرها وهي تستغفر. لازلتي أذكر ثباتها إذ تكلمني.. ولقد شعرت ليلتها أنها ليست على ما يرام.. حتى ساءت حالها حقًا وتردت فجأة.. فجاءها الطبيب والممرضات واهتموا لأمرها إلى أن استقرت ونامت ثانية.. ولم يكن من عاداتها أن تنام قبل صلاة العشاء. وانتظرت أنا أن يهدأ المكان.. كي أفعل فعلتي.. فلما أن ساد الهدوء وكدت أفعلها أفاقت المرأة ثانية.. وكعادتها جعلت تهمس في طمأنينة ويقين، وقد مضى هزيع من الليل..

صوتها الذي كان يتسرب كماء طاهر.. يغسل مسمعي من صوت لعين يحرضني على الانتحار.. رافقني طوال الليل، وهي تذكر الله ولا تنقطع، وقد سمعتها تتلو من القرآن ما اهتزت له جوارحي.. فقرأت يس.. وكررت المعوذتين والإخلاص، وأنا أبكي مترددة بين الفكرة السوداء وذكرها والصمت الطويل.. حتى قررت الخروج من الغرفة بحثًا عن ركن أتصرف فيه بحرية.

سحبت جسدي المنهار تاركة مكاني.. ومشيتي يثقلها التراجع من حين لآخر.. كلما استوقفتني محطة من محطات مناجاتها..

وأدعيتها الرءوفة تلك.. كيد ناعمة تمسك بي وتلطف بروحي من قسوة استفحلت بقلبي فجأة، وتسالني العودة عن هذا الذي أسعى إليه.. تابعت سيرى ببطء والقارورة في يدي.. أصغى وأبكي وأتعر وقد هممت بالخروج من الغرفة غير أكيدة بادئ الأمر من أنني سأفعلها، ولكن الأفكار السوداء التي تراصت برأسي لحظتها أبت إلا أن تغلق الأبواب والمنافذ التي تبقت لي.. وتدفعني وأنا لا أشعر حتى غادرت الغرفة وصرت في آخر الرواق!.. أين انتهى النور الاصطناعي الشاحب على امتداده.. ودخلت عتمة ركن صغير حيث تنتهي كل الغرف.

جثوت على ركبتي أبكي وأفتح العبوة وصوت المرأة لا زال يطرق مخيلتي.. فأهم بالشرب ثم أتردد.. طال بي ذلك حتى شعرت بشخص ما خلفي فكانت تلك الممرضة الطيبة في أعقابي ولم أنتبه لها إذ أمسكت ما كان بيدي وأنا أصرخ.. دعيني.. إلى أن أفلتته.. ثم أخذت تهدئني وتسحبني نحوها.. بينما لا زلت أقول بصوت مختنق متعب للغاية:

«أريد أن أموت.. اتركيني».

وهي تمسك بي، وتبعد القارورة جانباً.. ثم شدت ذراعي تدعوني للنهوض.. محاولة جهدها أن لا يحدث مني ضجيج يجلب الآخرين. كنت في غاية الإحباط.. لا أكاد أقوى على النهوض، وهي تغالب صدي لها.. حتى سحبني من يدي.. رغم إعراضي.. فقالت لي بهدوء:

«تعالى معي فقط».

وجذبتني فسارت وسرت أتبعها كأني طفلة.

اتجهنا نحو مخبر صغير هنا بالقسم ذاته.. كان مقفلاً.. فتحتة..
ودعنتي للدخول.. ثم أجلسني على كرسي وعبأت كوباً من الماء
أحضرتة لي.. وجلست إليّ فأمسكت بيدي تقول:
«أشربي».

ففعلت وتابعت تسألني:

«كيف تشعرين الآن؟».

نظرت إليها أريد أن أتكلم ولم أستطع حتى قالت لي:

«لا بأس.. ارتاحي».

ثم أخذت تحدثني بمثل ما حدثني به تلك المرأة معي بالغرفة
هذا المساء، وإنها كذلك.. تحاول التخفيف عني حتى سمعنا حركة
بالرواق، قفزت الممرضة على إثرها تستطلع ما يحدث.. فوقفت
بالباب تشير بيدها وهي تتساءل:

«ماذا هناك؟».

لترد عليها إحدى زميلاتها:

«كنت أبحث عنك.. تعالي بسرعة».

نظرت إلي برهة فلم تشأ أن تتركني وحدي، ثم ما لبثت أن
غادرت على عجل. بعدها بلحظات ازدادت الحركة والهمس خارج
المكان الذي كنت فيه.. فقممت عن مجلسي وخرجت أستطلع الأمر.
رأيت الممرضات يترددن على الغرفة التي كنت فيها.. فعرفت
أن المرأة معي بالغرفة قد حدث معها أمر ما، ولم أشعر إلا وقد سرت

ببطء.. أقترب شيئاً فشيئاً.. فلما صرت بباب الغرفة وقفت أنظر.. والمرأة ساجدة والممرضات حولها! في منظر لم أعتده منها.. إذ كانت لا تقوى على الحراك فتصلي وهي جالسة على سريرها.. منذ اجتمعنا هاهنا. تقدمت نحوها.. وأنا لا أكاد أفهم وإحداهن تقول:

«منذ دخلت عليها وأنا أنتظر أن تقوم من سجودها كي أناولها حققتها المعتادة.. فلما جئت أتحسس حالها وجدتها لا تتحرك!».

دخل الطبيب مسرعاً، فدنا منها أيضاً وجعل يفحصها وهي ساجدة ثم كبر، وأمر بجلب فراشها على الأرض بالقرب منها وبحملها إليه.. فحركتها الممرضات بلطف وهي على هيئتها حتى وضعوها فوق الفراش، وعاد الطبيب يفحصها.. كأنه يريد التأكد من أمر ما.. حتى قال:

«لا إله إلا الله.. توفيت ساجدة!».

ارتفعت تسيحات من كن معي، وجعلن يكبرن والطبيب أيضاً.. وقفوا حولها يبكون في منظر مهيب لم يسبق أن رأيت مثله أبداً! وأما أنا فقد ارتجت الأرض من تحتي رجاً حتى سقطت ورأسي ذليل إليها.. لا أكاد أصدق ما كنت سأفعل بنفسي قبل لحظات.. بينما كانت هذه السيدة تحضر نفسها كي تلقى الله العظيم ساجدة!

كانت تلك الحادثة بمثابة ميلاد جديد لي.. كأنها لفظت على الفور امرأة كئيبة بائسة من داخلي.. ورمت بكل ما يملؤني من حقد ومقت وآهات.. أو شكت أن تودي بي إلى تهلكة لا ريب فيها.. لا زلت مغشياً علي.. وجيئني إلى الأرض، وطوفان الدمع يهطل آخذاً بيدي إلى ملكوت الواحد القهار.. ألتمس هذا الطهر من سجدة أظنها لن تكون

بقيمة السجدة التي سافرت عبرها تلك المرأة العظيمة! ألتمس العفو والغفران! آه من نفسي عندما انتابها القنوط من رحمة الله وفضلت الذهب غير بريئة! وجعلت أردد وقد غبت عن حولي وقتاً طويلاً:

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

أقولها وأعيدها ولقد انسلخت عن بقايا هذه الدنيا الفانية إلى رب عظيم؛ عمري بلطف منه أن كتب لي الحياة مجدداً.. حتى أفرق بين الخاتمتين وأستدرك نفسي.. كلنا سننتهي يوماً ولكن كيف؟ قضيت ما يقارب الربع ساعة على حالي.. ثم رفعت بوجهي صوب السماء ويدي أنضرع، وأنا لا أملك أن أهرب من الله إلا إليه.. وإني كذلك حتى ربتت على كتفي تلك الممرضة تبكي وتبتسم تارة؛ إذ رأني أعود إلى رشدي وهي تلمس خيراً فيما عساه يكون بعد هذا.. فقالت بصوت مختنق:

«لا أدري كيف اطمأنت نفسي وإن كنت قد تركتك وحيدة وقد أوشكت على».

ثم سكتت لا تريد أن تذكرني بما كدت أرتكبه قبل ساعة من الآن.. وأضافت:

«لا بأس، تعالي معي لترتاحي على سريرك».

فأشرت لها بيدي أن تدعني قليلاً.. وأنا أنظر إلى جثة تلك المرأة هامة في وقار.. والنور يحيطها كأنها ملاك! غير آبهة لما كان يحدث من حولي غيرها.. وهذا الهدوء الذي التفت فيه نفسي فجأة.. كوشاح ناعم لملم روعي بعد عراء خريفي طال بي وحيدة.. بل.. كقميص يوسف القوي به على بصري فجعلت أرى الدنيا على غير عاداتها فجأة!

تلك التراتيل التي كنت أصغي إليها.. وهي تتسرب إلي عبر صمت الليالي التي قضيتها معها.. تمثل أمامي كلها الآن.. لطالما ألحت على ربها في جنح الليل أن يرزقها حسن الخاتمة.. فاستجاب لها.. طال التأمل بي وقد ألقى برداء أبيض على جسدها الطاهر وكتب التقرير بوفاتها. مضى وقت.. قبل أن يحضر ذلك السيد الذي كانت خادمة في بيته، وقد تم استدعاؤه، ليحضر إجراءات إخراجها من المشفى.. تذكرت أطفالها.. رق قلبي وأنا أسترجع وجوههم بالواحد، وأستحضر أطيافهم حولها.. وصغيرها! يا الله! تذكرت ما أخبرتني الممرضة عنها.. استرجعت كل شيء رأيتة يخصها.. صلاتها، هدوءها، وقطعة الحجر الصغير.. استأذنت الممرضة في جلبي لي.. فلما كان بين يدي تيممت.. وقد ارتفع أذان الفجر في انتظار أن نصلي الصبح ونلج هذا اليوم الجديد.. كأنني أعد نفسي بالرجوع ثانية بقلب قوي لا تغلبه المحن.. هكذا انطلقت صوب مستقبل أوكلت أمري كله فيه لله وحده.. لا أخاف شيئاً، ولا أرفض ما يأتيني من أمره أروض نفسي على الرضا والثبات.

انبثق الصبح، وأخذ النور يتسلل عبر النوافذ والممرات إلى أرجاء المكان.. كمسافر عاد يتفقد ما حدث في أثناء غيابه.. وانفض من كان حولي من الممرضات بعد حمل جثمانها.. بقيت وحيدة لولا ممرضة تتردد علي والمنظفة وقد جاءت كي ترتب المكان لهذا اليوم الجديد.. الكل يتحدث عما حصل بهذا المكان ليلة البارحة.. فقلت في نفسي وقد طال التأمل بي.. لو أنني فعلتها حقاً وانتحرت لحظتها.. لقليل عن أخبار هذا المستشفى لنهار اليوم.. امرأتان توفيتا ليلة أمس.. إحداهما انتحرت.. والأخرى ماتت ساجدة.. يا إلهي! صرت أفكر في هذا وأعود فأخفي وجهي بين يدي وأستغفر بعمق.. وإنني كذاك حتى

دخلت علي أمي ثانية تحمل صبيًا وتبتسم.. فلما وصلت إليّ وناولتني إياه ما كنت لأصدق أنني قد نسيت صغيري! ورحت أقبله وأشم ريحه ودمعي يغلبني كعادته وأمي تضمنا معًا.. فصرت أسألها وأبكي:
«كان معك طوال الوقت؟».

وهي ترد علي بحنو عظيم:

«نعم يا حبيبتي.. كان معي طوال الوقت بعدما انتهت فترة العناية الطبية به.. وإني لأجد ريحك فيه وأستشعر رجوعك إلي كلما احتضنته.. كم كان أملي بالله كبيرًا وأنا أحدثه بأنك ستعودين إلي وإليه.. وها أنت بين يدي يا كل أملي».

انقضت أيام بعدها وأنا أستجمع قواي لأعود إلى الحياة من أجلها ومن أجل ولدي، فكان قرار الطبيب بخروجي من المشفى خبرًا جميلًا جدًا وهو يفحصني ويقول:

«صار بإمكانك العودة إلى أهلك.. ولتواصلني العلاج على مراحل لتزول آثار الحروق.. وإن كانت ستأخذ وقتًا طويلاً».

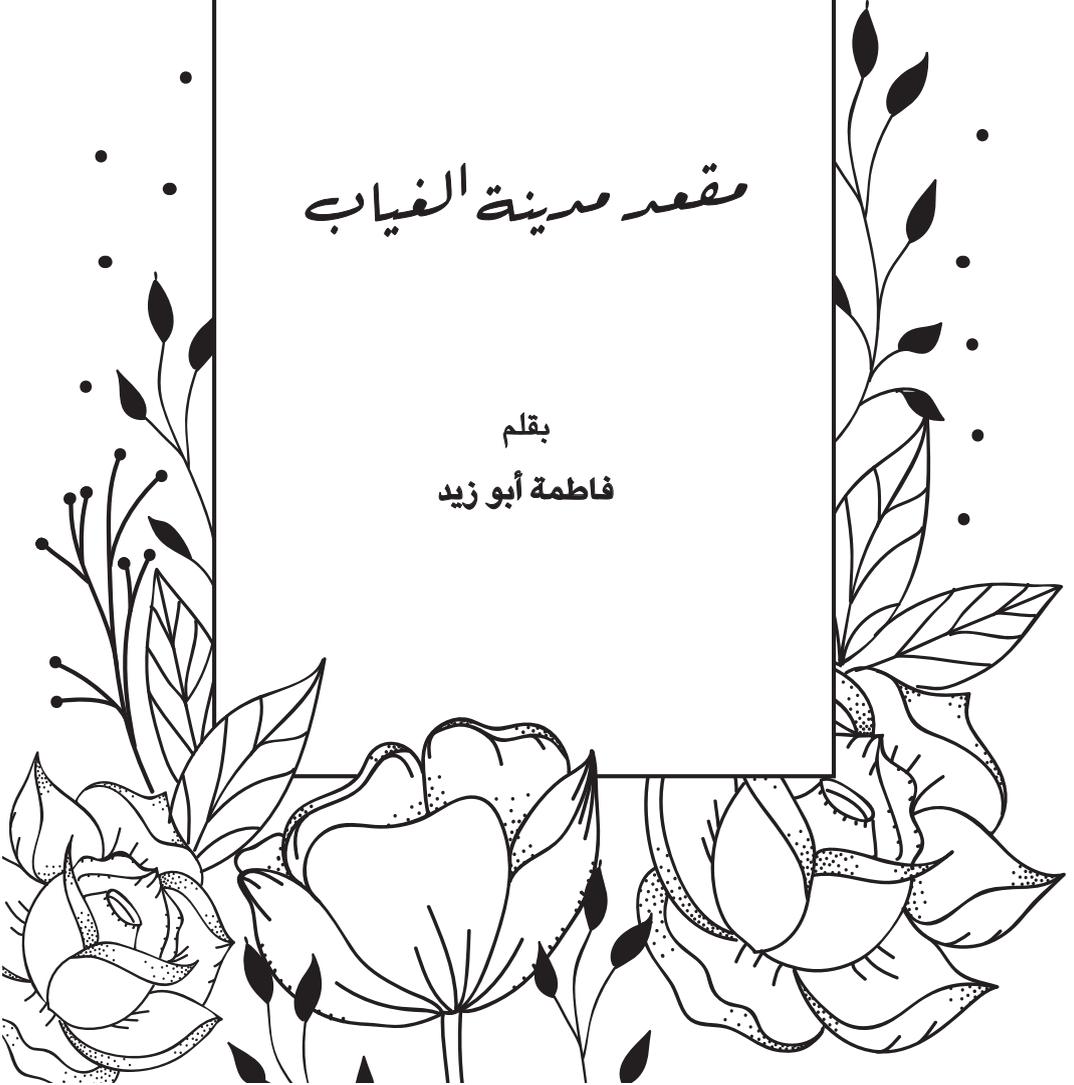
سعدت لهذا كثيرًا ونفسي تحدثني أنها بداية لي وكأنني أولد من جديد.. وغادرت المكان برفقة أمي ذات صباح وأنا أهدق به متدبرة.. تاركة تلك الذكرى الأليمة خلفي راغبة في حياة أفضل أو بالمعنى الأصح.. في امرأة أفضل بكثير مني قبل أن أدخل هذا المكان الذي ظننته آخر محطة لي بعمرى.. وعدت إلى بيتي.. وأواجه ما تبقى لي من تصرفات هذا الزوج الذي لم يعد يراني جميلة حتى استطاع أن يقف على عذر له.. كي يطلقني ويعيدني إلى أهلي ولكنني لم أكن خائبة هذه المرة.. تركت ذلك الرجل الكهل لزوجته وأهله، كان علي

أن أتحمل نتائج أخطائي.. فلم أشعر إلا وقد عدت مطلقة بطفلي إلى بيت والديتي؛ حيث رأيت أن علي أن أرتب ما تبقى من حياتي على نحو صحيح يليق بي وبهذا الولد الذي أمني الله عليه، ولقد سرت به إلى بيت الله الحرام وأمي معي أخدمها بكل ما أملك؛ لأغسل روحي من كل ما أتعبها وألتمس في قربي من ربي شفاء لا يغادر سقمًا.. وأنا سعيدة بما أنا عليه من حال الرضا.. أن منَّ الله علي بهذا؛ لأبث حزني وأدعوه لعل ما ابتلاني به كان لحكمة ما غابت عني طويلًا.. وإني لأنظر إلى الكعبة الشريفة لا أكاد أصدق أن قد منَّ الرحمن علي بهذا، وكتب لي الحياة كي أقف بين يديه وأطلب الصفح والمغفرة.

مقعد مدينة الفياب

بقلم

فاطمة أبو زيد





« الثانية عشر منتصف الليل.. أين أنا؟ ألا يفترض بي أن أكون في سريري الآن؟ ما الذي أتى بي إلى تلك المدينة المظلمة؟.. يا للعتمة! بالكاد تتلمس قدمي موضع خطواتهما. آه ما هذا؟ الشوارع خالية تمامًا، والبيوت مهجورة؛ يبدو أنها لم تُسكن من فترة طويلة..

أنا لا أدري إن كنت أضعت مدينتي أم ضُعت بها.. لكن جَل ما أدركه الآن أن هذه المدينة لا تختلف كثيرًا عن مدينتي.. إلا أن مدينتي تكتظ بالبشر سواء القاطنين بها أو اللاجئين إليها... يا للهول! تبدو الشوارع وكأنها خطوط مستقيمة بلا انبعاجات أو انحرافات كتلك التي نعرفها.

رغم أنني تمنيت كثيرًا أن تكون شوارعنا كذلك.. إلا أن طول هذا الشارع جعلني أتراجع!

أعتقد أن هذا الطريق المستقيم شاق وإن وهب لنا الله مثله لن يسلكه أحد، أمثالنا لا يقدر على السير إلا بطرق ملتوية وكأننا خلقتنا من طين نفثت فيه الأفاعي.. رغم ذلك.. كان أهاليها ومعلمينا وكل من ألقته الحياة صدفة أمامنا يقولون: «إن الطريق المستقيم يختصر

المسافات وأنه طريق يحبه الله ويرضيه لعباده»..

أردت أن أتوقف عن السير قليلاً لألتقط بعض أنفاسي لكنني أبصرت عن قرب قلعة ضخمة تُشبه تلك القلاع التي نراها في أفلام الخيال العلمي بالتلفاز.. أصابني الفزع بعض الشيء وأردت أن أعود لبداية الشارع الذي أتيت منه لكن عندما أدت ظهري قاصدة العودة وجدت أن لا شيء ورائي، الشارع الذي كنت أسير فيه وبقية الشوارع التي كانت تُلفه من كل جانب كل ذلك أصبح مندثرًا.. لا أستطيع السيطرة على دقات قلبي التي تتسارع ولا أجد بشريًا واحدًا يخبرني أين أنا وما الذي يحدث معي بالضبط؟..

لم تدع هذه المدينة لي خيارات! الآن عليّ مواصلة السير من جديد، عليّ أن أقطع هذه الخطوات من أجل الوصول إلى باب تلك القلعة المُرعبة.

لا أدري ما الذي دفعني لأن أخطو هذه المسافة القصيرة وأنا ضاربة بنظري في باطن الأرض..! لقد زادني الأمر فزعًا فكلما تغادر قدمي موضعًا سريعًا ما يندثر.. بات الأمر مُخيفًا، أصبحت أشعر أنني أُقاد إلى تلك القلعة وأن أحدًا ما يجذبني إليها..! حاولت أن أتخلص من تلك الأفكار لكنها لا تتوقف عن العبث بدخلي.. رغم أن قدمي توقفتا عن السير.. لقد وصلت.. ها هو الباب يبدو صغيرًا جدًّا رغم ضخامة البناء! ما هذا؟ إنه مفتوح! سرت الطمأنينة في نفسي قليلًا.. ربما سأجد أحدًا بالداخل وأسأله عن كل ما يختلج صدري..

الآن يجدر بي أن أطرق الباب بضع طرقات حتى يتنبه أحدهم

لقدومي..

أعتقد أنه مضى وقت كافٍ ولم يجب أحدهم، ربما يكون هذا الشخص عجزاً ثَقُلَ سمعه فلم يسمع صوت دقات الباب، أو ربما يكون مريضاً لا يستطيع النهوض من الفراش.. على أية حال.. الباب مفتوح ولا مفر من الدخول.. للأسف بمجرد أن دلفت انهار سقف توقعاتي فوق رأسي.. لا أحد هنا.. لا أحد ولا شيء حتى أن هذه القلعة الشاهقة الارتفاع لا تحوي سلالم! إنها فقط غرفة من أربعة جدران خالية من كل شيء إلا من مقعد قديم يتوسط أرضيتها! حاولت أن أتمالك أعصابي لكن صوت بكائي ارتفع رغماً عني وصرت أصرخ كالمجنونة:

«فليساعدي أحد، أنقذوني من هنا يا عالم، سأموت وحدة»!..

ظلت أكرر هذه العبارة أكثر من مرة، وكأنها ترنيمة أنشدتها للجدران التي تحيط بي أمله أن أجد رداً يخلصني مما أنا فيه، حتى إن كان هذا الرد صدى صوتي فسأرتضيه.. فجأة سمعت صوتاً يقول:

«أيتها الفتاة! كفاكِ صراخاً! ألا أستطيع العيش بهدوء!».

لم أتوقف كثيراً عند ما قاله هذا الصوت، لقد انفجرت أساري و كأنني نسيت ما لاقيته خلال هذه الرحلة من معاناة، وقُلْتُ بانفعال:

«يا إلهي! عثرت أخيراً على صوت يشاركني هذا الصمت... مرحباً، أين أنت؟ أنا هنا بالأسفل».

«مرحباً، أنا أيضاً بالأسفل».

بدأت أدور بعينيّ يميني ويسرى لكنني لم أبصر أحداً فقلت:

« بالأسفل! لا أرى أحداً».

« لست بشرياً انا المقعد».

أجبت برعب بدا في رجفة صوتي:
«المقعد! ماذا تعني؟».

بدا المقعد الذي يتوسط الغرفة يتحرك صوبي حتى توقف أمامي
مباشرة وسمعت صوتًا صادرًا منه يقول:

«مقعد مدينة الغياب! هذه القلعة خاصتي، وتلك المدينة مدينتي
ولا يدخلها سوى الراغبون بالغياب».

بدا صعبًا عليّ استيعاب ما يجري لكنني لم أتمالك نفسي أن
أعقب قائلة:

«الغياب بكل مرارته وأوجاعه مجرد مقعد في قلعة! كيف؟ ثم
إنه لا أحد بالمدينة! أين الغائبون الذين تتحدث عنهم؟».

بدا المقعد يتحرك عائداً إلى موضعه وأخذ يهتز بعنف ثم قال:

«لست مُرًّا ولا موجعًا، أنا فقط صُنِعَ أيديكم! هجرتم حلاوة
الوصل ورغبتم في علة تركنوا إليها إذا عجزتم! صنعتم مقعدًا تجلسون
عليه وقتما شئتم! تركتم عنفوان المواجهة وأفلتم قبضة المصير عنكم
وجئتم إليّ.. لكن ما لم تدركه عقولكم أن للغياب لعنة لن ترحمكم!
لعنة جعلت من كل غائب يقصد مدينتي بيتًا مهجورًا يشع ظلمة!
وأحطت تلك البيوت بشوارع مستقيمة مُمهدة حتى أستدرجكم إليّ،
ومحوت أثر خطواتكم حتى تدركو أنه لا عودة!».

زاد اهتزاز المقعد واستطرد مقهقها بصوت مرتفع:

«أنتم هنا للأبد.. فلتذوقوا وبال صُنْعكم.. فلتذوقوا وبال

صُنْعكم».

وقبل أن أسأله عن مصيري وما الذي أتى بي إليه؟ فجأة اختفى المقعد، وتحولت غرفة القلعة إلى غرفتي التي في بيتنا، وها أنا في فراشي ووالدتي تجلس على المقعد المجاور للفراش، و تبتسم لي قائلة:

«لقد عاد أخوك من العراق يا ليلي بعد طول غياب».

ثم مسحت بكفيها على شعري وخرجت... و ما أن سمعت صوت إغلاق الباب حتى نظرت إلى المقعد قائلة:

«يا مقعد مدينة الغياب! تعرف جيدًا أنك من صنّع الغائبين، ولا تعرف أن من يصدق الوعد منهم بالأ يعود إليك سيعود إلينا!».



فهرس الموضوعات

٥	خريف مريم.....
٣٣	لحظات قبل موت عامرة.....
٤٣	يوليوس.....
٥٥	نصفين.....
٧٣	الغصن المذبوح.....
٨٩	المكيدة.....
١١٥	رفات تبخر إلى الجنة.....
١٢٣	رواق الصمت.....
١٣٧	الهروب من جنة آدم.....
١٤٥	الصمت والإصغاء.....
١٦٧	مقعد مدينة الغياب.....

